المجتمع الحاضن وثقافة الاحتواء

تجربة اندماج المماليك فى المجتمع المصرى قبيل عصر التحديث

(فى ضوء دراسة جوابات المماليك)

د. ناصر أحمد إبراهيم

أستاذ التاريخ الحديث المشارك

قسم العلوم الانسانية بكلية الآداب والعلوم

جامعة قطر ، ومعار من جامعة القاهرة.

المجتمع الحاضن وثقافة الاحتواء تجربة اندماج المماليك فى المجتمع المصرى قبيل عصر التحديث (فى ضوء دراسة جوابات المماليك)

د. ناصر أحمد إبراهيم

تتناول هذه الورقة دراسة مصدر جديد لتاريخ المماليك فى مصر ، وهو عبارة عن مجموعة كبيرة من "جوابات المماليك"[١] ، التى تعود إلى عام ١٨٠٠ / ١٨٠١؛ أى أنها تغطى جزءاً مهماً من تاريخ الحملة الفرنسية وعلاقة الفرنسيين بالمماليك والمجتمع. وهذه المجموعة من الجوابات تمثل جزءاً من مجموعة كبيرة من ملفات وثائقية أصلية تتعلق بالحملة الفرنسية ، تم شرائها فى العهد الملكى فى أحد مزادات باريس ، اشتراها أمين المكتبة الخاصة الملكية[٢] من ورثة أحد الجنرالات ممن شاركوا فى الحملة الفرنسية ، وذلك قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية على الأرجح[٣]. واهتم الملك فاروق بتزويد الجامعة المصرية بهذه المجموعة لتشكل جزءاً مميزاً ضمن المقتنيات النادرة التى تم إيداعها فى غرفة خاصة بالمكتبة المركزية بالجامعة (جامعة القاهرة).

وتم إدراج الجوابات فى ظرف حمل عنوان Lettres de Murad Bey ؛ أى "جوابات مراد بك" ، ذلك أن معظم الجوابات ممهورة بإمضاء وتوقيع الأمير مراد بك (وعددها ٦٢ جواباً) ، أما بقية المجموعة (وعددها سبعة جوابات)[٤] : فهى لبكوات مماليك آخرين ، كانوا نظراء له فى السلطة ؛ كالأمير إبراهيم بك الكبير[٥] الذى كان قسيمه فى حكم البلاد لنحو ربع قرن قبل مجىء الحملة الفرنسية، وجواب للأمير حسن بك الجداوى[٦] الذى كان من كبار منافسيه قبل الحملة. فضلا عن جوابات أخرى لبعض أتباع مراد بك نفسه، ومنها جواب للأمير محمد بك الألفى[٧]، وهو من أهم أتباع البيت المرادى على الإطلاق وأشدهم قوة ؛ وجوابين للأمير حسين بك الزنطلى اليونانى الأصل[٨] الذى كان يجيد أربع لغات من بينها اللغة الإيطالية ، وهو ما جعل مراد بك يختاره ليكون

كتخداه فى القاهرة للتحدث باسمه قبل الفرنسيين[٩] ، وأخيراً نجد جوابين اثنين لكل من عثمان بك البرديسى[١٠] ، وسليمان بك محمد[١١] .

وعلى ذلك فمجموع الجوابات يصل إلى ٦٩ جواباً، ومن ثم فهى مجموعة كبيرة من الجوابات ، أصيلة فى طبيعتها الوثائقية، ولو أنها ليست المجموعة الوحيدة بالنسبة لفترة الحملة الفرنسية؛ لأن الأرشيف الفرنسى بفانسن Vin-cennes على سبيل المثال يشتمل على عدد آخر من الجوابات المملوكية المتناثرة فى محافظ الحملة الفرنسية[١٢]، لكن مجموعة (جوابات فانسن) أقل عدداً مقاربة بمجموعة جوابات مراد بك، كما أن هذه الأخيرة تتسم. فضلا عن ذلك، بأنها الأكثر تجانساً على مستوى نوعية وطبيعة الموضوعات والقضايا التى غطتها؛ ما يجعلها تفوق مجموعة فانسن فى الأهمية، ويجعلها جديرة حقيقة بأن يفرد لها دراسة مجهرية تكشف أهميتها التاريخية، وما يمكن أن تُجليه لنا من أضواء تُساعدنا على الاقتراب من فهم حقيقة المملوك وماهية تكوينه الثقافى والسياسى.

وتُمثل التطورات السياسية المرتبطة بالحملة الفرنسية الظرف التاريخى لظهور تلك الجوابات ؛ حيث جاءت فى أعقاب دخول المماليك فى علاقة تحالف مع الفرنسيين ضد التحالف الأنجلو – عثمانى. وبعيداً عن هذا الملمح السياسى، سوف تركز الدراسة بشكل أساسى على كشف الأهمية التاريخية للجوابات من منظور ثقافى – اجتماعى ، متجاوزين البعد السياسى الذى يستحق أن يُفرد له دراسة مستقلة؛ ومن ثم تدور إشكالية الدراسة حول اختبار مدى إمكانية توظيف الجوابات كمصدر يُمكن أن يمدنا بإضاءات جديدة حول فكرة المملوك، ومدى اتساق أو تناقض الرؤية ، بين منظور المجتمع المعاصر المراقب لهذه الطبقة الاجتماعية، وبين التمثلات الذهنية للمملوك عن نفسه وحياته والروابط الاجتماعية التى كانت تجمع أبناء طبقته وتشد لحمتها، برغم تنوعها الإثنى وتبايناتها الثقافية، وخاصة أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر. إن رهان هذه الدراسة يظل قائماً حول إمكانية الكشف عما تختزنه الجوابات من

معلومات أو إضاءات جديدة ، تسمح بمناقشة أبعاد الهوية المملوكية وما اكتنفها من غموض.

الهوية المملوكية : رؤى متعددة وتفسيرات متناقضة

اتجهت الأطروحات الكلاسيكية التى اهتمت بدراسة المماليك فى أواخر الحقبة العثمانية إلى رسم صورة تقليدية لفصيل عسكرى وافد من مجتمعات مغايرة فى الثقافة والدين واللغة والعادات والتقاليد ، قُدِّر له أن يتولى فى ظروف معينة إدارة حكم مصر بصورة شبه مستقلة عن الباب العالى ، وذلك منذ ستينيات القرن الثامن عشر وحتى مجىء حملة آخرة القرن المعروفة بالحملة الفرنسية (١٧٩٨ -١٨٠١م) ؛ ومن ثم تم التركيز على المماليك كنخبة (أجنبية) ، تكالبت على السلطة ، وتصارعت على الاستئثار بأهم الامتيازات المادية التى مكنتها من اكتساب قوة اقتصادية دعمت نفوذها. وعلى هذا النحو تختزل هذه الرؤية تاريخ المماليك فى فكرة الصراع على السلطة والموارد، وأنهم عاشوا فى حالة من الاتساق مع الذات خارج سياق المجتمع المحلى ، كما يرى أصحاب هذا الاتجاه إنه إذا كانت الفرق العثمانلية قد اندمجت فى المجتمع ، فإن طبقة المماليك عرفت كيف تنأى بنفسها عما لاقاه مصير هذه المجموعات التى عرفت بـ"مجتمع الرقيق العثمانى" ، مؤكدين بأن الطبقة المملوكية ظلت كتلة اجتماعية متميزة داخل المجتمع المصرى ، تمارس دورها فيه كنخبة ارستقراطية قوية[١٣].

داخل هذه الصورة التى تكاد تشكل النظرة العامة فى معظم الكتابات ، نجد عدة تفسيرات أخرى موازية ، قدمت أكثر من مقاربة فى محاولة تحليل وضعية المماليك كطبقة اجتماعية داخل المجتمع المصرى : فمثلاً فى دراسة " جبرييل بيتربرج " ، نجده ينظر إلى المماليك على أنهم عاشوا كجماعة إثنية فى " دائرة مغلقة " Closed Circle ، ويُعزى ذلك إلى عاملين ؛ الأول ، حرصهم على إمداد بيوتهم بعناصر من نفس أصولهم الأثنية (القوقازية) ، والثانى ، سيطرتهم على الفائض الذى كان يذهب من يد إلى يد داخل إطار المجموعة / أو ما يعرف

بالبيت ، وهو ما دعمهم فى تغطية نفقات معيشتهم ، وزود قدرتهم العسكرية فى تحقيق الهيمنة على السلطة والانفراد بها؛ ليُخلص جبرييل بيتربرج فى النهاية إلى أنهم أمكنهم الحفاظ على مجموعتهم الإثنية لفترات طويلة كنخبة قوية متماسكة ، لم تقبل دخول غير المماليك دائرتهم ؛ وعاشوا من ثم منكفئين على أنفسهم ، يحيطون مجموعتهم الإثنية ، المتجددة من خلال تجارة الرقيق ، بسياج يحفظ لها مكونات الهوية الخاصة عرقاً ولغة وثقافة(١٤).

ويقترب من هذا التفسير، نوعاً ما، ما قدمته دراسة كل من جوتشيا ودانيال كريسليوس Crecelius / Gotcha : فمن خلال استنادهما إلى أربعة جوابات مكتوبة باللغة الجورجية (١٥)، قدما تصوراً يُفيد بأن المماليك كانوا طبقة متجانسة تقريباً، فالغالبية منهم ، نحو أواخر القرن الـ ١٨م، كانوا من أصول جورجية قوقازية، وأنهم كانوا شديدى الولاء لبلدهم الأم (چورچيا)؛ حيث تواصلوا مع أهاليهم هناك، وأرسلوا إليهم الأموال والهدايا، واستقدموا بعض أقاربهم إلى مصر، ولم يتخلوا عن لغتهم الجورجية التى تمسكوا بها، وجاهدوا عبر استراتيچيات معينة لضمان عدم طمس هويتهم واستمرارية تواصلهم مع بلد المنشأ، وأنهم لم يكونوا منعزلين أو غير متابعين لما كان يجرى من سياسات وتطورات فى إقليم القوقاز، ووفقاً لهذا التفسير (الرومانسى) كان للثقافة المملوكية أقنومها القوقازى الخاص الذى يجعلها خارج ما هو مصرى محلى، وخارج ما هو عثمانى كذلك. ومن ثم لا تبدو مصر، مرة أخرى، بالنسبة للمماليك، فى هذا السياق من التفسير، سوى فضاء، مارس المماليك من خلاله دورهم البارز فى حكم هذا البلد، وتسيد قمة النفوذ السياسى والاجتماعى فيه فحسب(١٦).

وعلى النقيض من هذا التفسير، نجد دراسات أخرى لأندريه ريمون André Raymond وبيتر جران Peter Gran ، على ما بينهما من تباين منهجى ، تُشير إلى أن طبقة المماليك فى الفترة الأخيرة من القرن الثامن عشر، التى يهمنا دراستها هنا ، كانت متنوعة الأصول : فخلال فترة الستينيات من هذا القرن

كانت أغلبيتهم إما چورچيين ، وشراكسة، أو مماليك روس، فى حين شهدت الفترة الأخيرة منذ مطلع الثمانينيات وحتى نهاية القرن الثامن عشر ، حالة من الإفراط فى شراء المماليك المرتزقة من كبار السن (السودانيين منهم والأوربيين) ؛ وهى ظاهرة تعود إلى توقف تجارة الرقيق الأبيض القوقازى الناتجة عن الحظر العثمانى ، وهو ما جعل ثقافة هذا الجيل من المماليك متنوعة المشارب والأصول واللغات ، وتغاير من ثم فى تكوينها الثقافى والاجتماعى ما كان عليه جيل خمسينيات القرن الثامن عشر وما قبله. وأن هذا تسبب فى ضعف البيوت المملوكية حيث ضعفت روابطهم التقليدية ، وحتى العصبية الإثنية أخذت فى الضعف بدورها. وتسبب هذا فى بعد الشقة بينهم وبين المجتمع المصرى الذى تنبه إلى هذا التغير العميق فى التركيبة الاجتماعية الجديدة للمماليك ؛ فكان الناس يمايزون بين المماليك وبعضهم البعض من زاوية تنشئتهم ومدى تشربهم للأصول والمعارف ، كدلالة على عمق الشرخ الذى أصاب الطبقة المملوكية. وينتهى ريمون / جران إلى أن الانطباع الواضح من قراءة أدبيات ووثائق هذه الفترة ، يُشير إلى أن المماليك باتوا يشكلون طبقة غير متجانسة ، ولم تعد چورچيا مصدراً أساسياً لهم ، لكن طبقتهم مع ذلك ظلت فى رأيهما منغلقة على نفسها ، وأن حاجة المجتمع المملوكى إلى سد النقص فى قوته العددية ذات التكلفة المادية الباهظة، أجبرها على الانخراط فى التجارة وممارسة شتى الاحتكارات والابتزازات التى عانى منها المجتمع المصرى[١٧].

هناك اتجاه آخر تمثله دراسات چين هاثواى Jane Hathaway، التى رأت أن الطبقة المملوكية كانت تعيش فى مصر كنوع من الإقامة ، وأن مصر مثلت لهم مجرد بقعة تمركزوا عليها ، ومارسوا من خلالها عملياتهم العسكرية والسياسية، لا تربطهم بالمجتمع سوى رابطة شكلية ، وأنهم تأثروا طيلة العصر العثمانى بما كان يجرى فى المركز أكثر من التطورات الجارية فى المجتمع المصرى ، وأن الثقافة السياسية المملوكية تماهت مع الثقافة العثمانية بصورة متكاملة، وأنهم كانوا يتابعون ما يجرى فى استانبول أكثر من أى مكان آخر، وأن ارتباطهم

وولاءهم للمركز العثمانى جعلهم معزولين إلى حد كبير عن التأثر بالأوضاع المحلية ، ومن ثم ترى جين هاثواى أن ثقافة النُخبة المملوكية والتعريف بمكونات هويتها يتعين معالجتها فى سياق عثمانى تحديداً[١٨].

بيد أن دراسات أخرى لنيللى حنا[١٩]، ترفض هذا الطرح الذى ينظر إلى ثقافة المماليك على أنها ثقافة تابعة للمركز العثمانى ، بل على النقيض من ذلك، تبين نيللى حنا أن ضعف الدولة انعكس فى ابتعاد مماليك القاهرة عن سياق الثقافة العثمانية ، وفى النصف الثانى من القرن الثامن عشر على وجه الخصوص ، وترى أن الكشف عن الجانب الثقافى فى هوية المماليك لا يزال مجالاً مفتوحًا غير مكتشف ، وأنه إذا كانت الصراعات على السلطة ، قد أخذت جزءًا مهماً من أوقات المماليك ، إلا أن ذلك لم يمثل المشهد الكامل فى حياة المجتمع المملوكى ، وأن المماليك وجدوا أنفسهم فى حاجة إلى الانغماس فى الثقافة المحلية ؛ لتدعيم وضعهم الاجتماعى وتأكيد شرعيتهم ، وأنهم كانوا أقرب إلى البيئة المصرية ثقافياً ، يتخذون أسماء عربية مثل محمد وأحمد وعلى ، ولا يتخذون أسماء تركية على نحو ما فعل نظراؤهم من المماليك الأوائل[٢٠]. وبقدر تمكنهم من تحقيق درجة مهمة من الاندماج فى الثقافة المحلية ، بقدر ابتعادهم عن ثقافة البلاط العثمانى فى استانبول. وتلفت حنا الانتباه إلى خطورة استخدام مصطلح "الثقافة العثمانية"؛ لأنه يُغطى على كل الاتجاهات، ويجعل استانبول مركزا لهذه الثقافة، فيما ينظر إلى الولايات العربية على أنها واقعة على أطراف تلك الثقافة، وهو ما لا تؤكده الوثائق ومصادر هذه الحقبة؛ ولذا اقترحت حنا اصطلاحاً بديلا أكثر دقة من الناحية الموضوعية وهو "التاريخ الثقافى للإقليم"[٢١].

وقدمت فى هذا السياق اختباراً لأحد المصادر الوثائقية ، وتحديداً وثائق المكتبات الخاصة (المملوكية) المسجلة فى سجلات التركات بالمحاكم الشرعية[٢٢]. وهذه الدراسة أظهرت تحولاً مهما فى الهوية المملوكية ؛ حيث أبانت عن أن

التباينات الإثنية واللغوية أحياناً لم تكن عائقاً أمام إقبال المماليك وتفاعلهم مع الثقافة المحلية ، بل واتجاههم إلى تمويل الإنتاج الأدبى ورعايته من خلال ظاهرة الصالونات الأدبية وجزل العطاء للعلماء والشيوخ. وأن فكرة التقسيمات اللغوية الحادة لا تثبُّت أمام التحقيقات التاريخية فى وثائق تلك الحقبة التى تُدلل – بصورة مغايرة – على تحقق درجة من الاندماج فى الثقافة المحلية ، وأن المماليك كانوا من بين من حافظوا على التراث الثقافى ونقلوه لأجيال تالية.

يتبين مما سبق وجود تباينات واسعة فى الرؤى المطروحة من جانب المؤرخين حول فهم إشكالية من هو المملوك ؟ وما هى ملامح هويته الثقافية والاجتماعية ، وماذا مثَّل له المجتمع الحاضن (مصر) من أهمية وجودية ؟ وكيف يمكن تتبع تشكل هويته من الاغتراب إلى الدمج المتفاوت كثافة وعمقاً ؟ وغيرها من التساؤلات التى تظهر إلى أى حد تبدو ثقافة المملوك وهويته مسألة مركبة وبالغة التعقيد أكثر مما يتصور؛ حيث تتعدد مشاربها بين ثقافة المنشأ التى عاشت داخله ، وجعلته فى بعض الأحيان يشتد بحنينه إلى بلده الأم ، وبين احتفاظه بثقافة محلية ، وجدها تنمو أيضاً داخله ، تزاحم، وربما تغالب، روافد ثقافته الأولى، ما جعله واقعاً فى حالة من الازدواج الثقافى واللغوى ، لتشكل جزءًا من نسيجه ، لا يمكن إنكاره ، بقدر ما إن حالته ظلت عاكسة لاستراتيجية طويلة من التكيف الاجتماعى والثقافى ، والتى مثلت بالنسبة له خيار الضرورة المستمر ، لكنها فى النهاية استهدفت بلا مراء تحقيق كينونيته الواقعية والحياتية.

هنا تحديداً تتضح أهمية استقصاء المجموعات الوثائقية التى لم تُختبر بعد فى الكشف عن أضواء جديدة ، لعلها تُجلى بعض الالتباس فى الحالة المملوكية التى نحن بصددها. فى هذا السياق تأتى أهمية دراسة "جوابات المماليك" باعتبارها مصدراً جديداً لم يخضع لدراسة مكثفة من قبل: فما الذى يمكن لهذه المجموعة الكبيرة من الجوابات أن تُقدمه لنا فى هذا الصدد؟ وإلى أى حد يُمكن أن تُثير طرح إشكالية الهوية المملوكية وإعادتها إلى ساحة المناقشة التاريخية من جديد؟ وكيف يُمكن توظيف ما تضمنته الجوابات من أفكار وقيم ، والربط بين

مختلف مستويات التعبير فى الكشف عن المفاهيم والتمثلات الذهنية التى يمكن معها رسم صورة معينة ، نستعيد عبرها كثيرًا من ملامح الهوية المملوكية. هذا تحديداً هو رهان الإشكالية التى أُحاول معالجتها فى هذه الدراسة وتفسير ظاهرة الاحتواء أو الاستيعاب الثقافى للمملوك فى المجتمع المصرى بوصفه مجتمعاً حاضناً لهم.

صوت المملوك : جوابات المماليك كمصدر وثائقى مباشر

يجب فى البداية الاعتراف بأن فهم هوية المملوك ليست مسألة سهلة ؛ لأنها بطبيعتها مرت بمراحل معقدة ، وارتبطت بظروف من التغيرات المركبة ، وتعرضت لتحولات عميقة فى مكون هويتها الاجتماعية وترسباتها الثقافية من جيل إلى آخر : فالمملوك يُجلب إلى مصر وهو مُحمل بتجربة تنشئته الأولى ، وذكريات طفولته التى لا يكاد ينساها ، ولغة ومفردات وتعبيرات تظل عالقة بالذاكرة ، تُترجم آداب السلوك وقواعد التنشئة الأولى ، ثم يجرى الدفع به فى خضم حياة مجهولة ، منذ لحظة الخطف المتكررة التى يُمارسها "صائدو الأطفال" فى القرى الجبلية وبين أحراش بلاد القوقاز ، وهم شبكة متخصصة فى تجارة بيع الرقيق الأبيض عبر استانبول والقاهرة. وهكذا نجدنا أمام مجموعة إثنية انتُزِعت من مجتمعاتها قسراً ، وفقدت منذ لحظة الخطف هذه ، تواصلها مع مجتمعها الأم وتراثها الثقافى ، وبات محتماً عليها مواجهة حالة من الاغتراب القسرى ، مع ما اكتنفها من عملية إعادة هيكلة للهوية بصورة جذرية (على مستوى اللغة والدين ومنظومة القيم وقواعد السلوك والآداب إلى جانب التدريب على قواعد الفروسية وإتقان فنون القتال والطاعة المطلقة للسيد ...إلخ)[٢٣]. نحن إذاً أمام حالة يُعاد فيها إنتاج هوية مجموعة وفق ظروف خاصة ، ولسنا من ثم بصدد هوية من النمط الطبيعى الذى تفرزه ظروف اجتماعية عادية ، متعارف على ملامحها وحدود مكوناتها العامة.

ولسوء الحظ يُحيط الغموض بهذه التجربة من إعادة التشكل أو حتى بمعرفة

حجم المعاناة والضغوط التى فرضت نفسها على المملوك الذى يكتشف فى تلك المرحلة الباكرة من حياته ، أن القدر بات محركاً لكل مصيره ، وظل يُشكل نمط حياته الجديدة المستندة إلى قيم ومفاهيم ولغة وتراث دينى وثقافى مغاير لنمط حياته قبل الخطف، وفقدان حريته أو إرادته الحرة بُعيد وقوع تلك الحادثة المفصلية فى حياته.

وتكمن المشكلة فى الحقيقة أن المماليك أنفسهم لم يُخلفوا وراءهم مدونات خاصة أو ذاتية ، تروى من وجهة نظرهم هم حقيقة تلك العملية المعقدة التى مروا بها خلال تجربة إعادة تشكل هويتهم، وما واجهته جماعتهم من تحديات وجودية مختلفة. ربما كانت مذكرات المملوك رستم (الشهير بمملوك نابليون بونابرت) استثناء من ذلك ، وهى المذكرات التى نُشِرت باللغة الفرنسية فى باريس أواخر ثمانينيات القرن التاسع عشر[٢٤] ، لكنها تناولت تفاصيل حياة المملوك وهو فى فرنسا (خلال الحقبة النابوليونية) أكثر من تركيزها على الفترات الأولى من حياته التى مر عليها سريعًا[٢٥] ؛ ربما لصعوبة تلك الحادثة المؤلمة التى نزعته عن عائلته وبلاده وغيرت مجرى حياته ، وقادته إلى مستقبل مجهول.

إن مدونات المراقبين المعاصرين كالجبرتى مثلاً أو إسماعيل الخشاب أو نيقولا الترك أو حتى المدونة المختزلة للشيخ عبد اللَّه الشرقاوى وغيرها من المصادر المتأخرة ...إلخ ، على أهميتها ، لا تُقدم سوى رؤية من الخارج ، تُعيد إنتاج صورة المملوك فى عيون هؤلاء المراقبين المعاصرين ، ومن منظور فردى ، كل بحسب موقعه من الأحداث ، وشبكة علاقاته ، وما أُتيح له من وسائل رصد الأخبار والمعلومات ، لكن الأكثر خطورة أن هذه المصادر الأدبية ركزت فى الغالب على الجانب العسكرى والسياسى أكثر من أى شىء آخر ، وهو ما جعل البعض لا يرى فى المجتمع المملوكى - فى ضوء هذه الوضعية الراهنة للمعلومات - سوى مجتمع قائم على الانتهازية وحرب الشوارع والغدر والقتل ، وأنه لا يعدو فى

التحليل الاخير سوى تاريخ متجدد من الصراع على السلطة. وهذه الصورة المجتزأة ، أحادية الجانب ، والمتعجلة فى كثير من نتائجها، جاءت بالطبع نتاجاً للتركيز على قراءة تلك الأدبيات، والاعتماد بشكل خاص على يوميات الجبرتى باعتبارها الأكثر ثراء من ناحية تفاصيل المعلومات ونوعيتها ، دون أن يضعوا فى الاعتبار أن الجبرتى أو نظراءه فى النهاية إنما قدموا رؤية خاصة ، ومن واقع تجربة فردية بامتياز، وتتضمن أحكاماً وتقييمات متسرعة فى بعض الأحيان ، وغير موضوعية أحياناً أخرى(٢٦).

ومقاربة بهذه المصادر الأدبية ، فإن " جوابات المماليك "، التى نهتم بدراستها هنا، تمثل بحق مصدراً وثائقياً من النمط المباشر، الذى يختزن داخله صوت المملوك وأحاسيسه وتداعياته الذاتية ومواقفه من كل ما كان يجرى من حوله. وعلى الرغم من الطابع الرسمى للجوابات ؛ كونها متبادلة بين جنرالين (مملوكى وفرنسى) ، إلا أنها تطلق آراء المملوك ، وتكشف مواقفه والطريقة التى يُفكر بها، بقدر ما تُضىء مناطق مجهولة فى الذات المملوكية نفسها : كيف كان المملوك يرى الأحداث العاصفة فى زمن كتابة تلك الجوابات؟ كيف كان يتحرك إزاء تحدياتها ؟ ما هى مخاوفه وتوجساته ومواطن الإزعاج والحيرة؟ وخارج الذات المملوكية ، تنفتح الجوابات على مساحة أخرى ، ترصد بعض مشكلات المجتمع وتناقضات المواقف والمصالح ، لتتجاوز الجوابات الشأن المملوكى الضيق إلى الدائرة الأوسع التى تجعل شخصيات عادية ومجموعات مختلفة من المجتمع أو حتى وافدة تُزاحم على الظهور فى قلب المشهد(٢٧). لكن الجديد هذه المرة أنها مصاغة بعيون وفكر الأمير المملوكى ومصحوبة برأيه وتقييمه لها ، مما يكشف عن منظور المملوك للمجتمع، وتحديد دوره إزاء مشكلاته وشواغله. وهو وضع أدرك منه الفرنسيون سبب ارتباط الناس بالمماليك ، وبالأمير مراد بك بصفة خاصة، والذى لاحظ الفرنسيون، وبشكل عملى، أن هيبته بين الأهالى دفعت مشايخ قرى الصعيد إلى التكالب عليه ؛ ليقدموا له الكثير من الأموال على سبيل التحية بعد استقراره بجرجا!(٢٨).

وعلى مستوى اللغة وقوة التواصل وبناء التصورات ، لا تطلق الجوابات صوت المملوك من دون وسيط مراقب فحسب ، وإنما تفيض بتعبيراته ذات الغنى الدلالى والرمزى ، برغم بساطتها، كما أنها تكشف طريقته فى استخدام الألفاظ والمفردات والمعانى ، بما يسمح فى النهاية بالتعرف على ملامح خبرته باللغة وبأساليب ممارستها، وحدود قاموس مفرداته اليومية (التلقائية) ، والتى يمكن معها الكشف عن دلالات اجتماعية وسلوكية ونفسية ، وربما تسمح دراستها بكشف كثير من القيم الاجتماعية التى آمن بها واستند إليها ، كمرجعية أخلاقية فى مسار حياته الجديدة داخل المجتمع الحاضن. ومن هنا تُعد الجوابات مقارنة بغيرها مصدراً وثائقياً أولياً ومباشراً ، يفوق فى أهميته الأصيلة مصادر المراقبين المعاصرين (الوسطاء).

اللغة والهوية : المملوك وظاهرة الاحتواء اللغوى والثقافى

للوهلة الأولى تقفز إلى الذهن بعض التساؤلات : ما هى دلالة لجوء البكوات المماليك فى مجموعة مراد بك إلى كتابة الجوابات باللغة العربية ؟ وهل يعد ذلك تحولا نوعياً فى ثقافة وهوية المملوك؟ أم جاء نتيجة تطور ممتد يضرب بجذوره فى فترات سابقة حتى على القرن الثامن عشر؟ فما الذى يمكن للجوابات أن تُقدمه من إضاءة حول هذه المسألة المهمة فى فهم تحولات الهوية المملوكية .

الواقع أن قراءة الجوابات تقودنا إلى ملاحظتين ؛ الأولى ، أن الجوابات لم تُكتب باللغة العربية فحسب، وإنما بالمستوى الكتابى الذى اصطلحت جماعة اللغويين على تسميته باللغة الوسيطة (Middle Arabic)، وهو مستوى من الكتابة يتم فيه المزج بين عناصر من الفصحى والعامية معاً[٢٩] ، ويعتمد تراكيب أسلوبية ومفردات بعينها شائعة الاستخدام فى الحياة اليومية عند العوام. والملاحظة الثانية فى الجوابات إنها أبانت – غير مرة – عن تصريح البكوات المماليك بجهلهم معرفة اللغة التركية[٣٠] ! ومعروف أن أستاذهم على بك الكبير نفسه (الشركسى الأصل)، بالرغم من أنه كان يقرأ ويكتب ، ويُجيد قراءة وتفحص

الصكوك ذات "الخطوط السقيمة" على حد قول الجبرتى، إلا أنه كان يستعين فى المكاتبات والردود التركية بـ" كاتب رومى" يُدعى مصطفى أفندى الأشقر وكذلك بمنجمه نعمان أفندى(٣١).

ويبدو أن دور الترجمان التركى المصاحب للبكوات المماليك صار أساسياً ليس عند جيل مماليك أواخر القرن فحسب ، بل أيضاً وربما بصورة أقل كثافة عند نظرائهم فى النصف الأول من القرن الثامن عشر ؛ فابن عبد الغنى على سبيل المثال يكتب عن الأمير إسماعيل بك بن ايواظ (نحو عام ١٧٢٣) بأنه كان سعيداً جداً من استعانته بمترجم (يُدعى على من أتباع حسن بك كتخدا النجدلى) ، يكتب بمهارة جميع "جواباته تركية كانت أم عربية"، وهذا المترجم الذى تداخل فى الطبقة المملوكية من خلال معرفته باللسان التركى، حصل على لقب بك ونال وظيفة مهمة مدرة للثروة ، حيث عُيِّن فى منصب " أمين الشون" ، وصار يُلقب بعلى بك أمين الشون(٣٢). إن سيرة إبراهيم السنارى نموذج آخر يؤكد أهمية معرفة اللغة التركية كسبب للحراك الاجتماعى والتداخل بين جماعة النُخبة المملوكية، ويكتسب أهمية خاصة لكونه عمل فى خدمة الأمير مراد بك صاحب الجوابات التى ندرسها هنا: ففى حالة إبراهيم السنارى ، يُخبرنا الجبرتى أن تعلمه للغة التركية كانت سبباً فى قيام مراد بك باستخدامه فى كتابة مراسلاته وقضاياه ، ووصل الأمر إلى أن جعله كتخداه، أى نائباً أو ممثلاً عنه ، حيث رخص له بالتحدث باسمه ، بما فى ذلك مع نظرائه من كبار بكوات المماليك ، بمن فيهم إبراهيم بك الكبير نفسه (قسيمه فى السلطة)! ، والجبرتى يقول بإن إبراهيم السنارى حقق من وراء ذلك ثروة كبيرة جعلته "من أرباب الوجاهات والثروات"(٣٣)، مما يُبين إلى أى حد لعبت إجادة اللغة التركية فى تلك الفترة دوراً مهماً لكثير من الشخصيات العادية ، كيما تأخذ طريقها إلى مزاحمة النُخبة الاجتماعية المتربعة على قمة المجتمع.

لقد بدا أن إجادة المماليك للغة التركية ليست منتشرة بشكل ملحوظ فيما

بينهم ، كما أن العدد المحدود الذى كان يُمكنه التحدث أو الكتابة بها كان لا يعرفها على ما يبدو بطريقة كافية أو بالطريقة المعيارية الفصيحة ، وهو ما ظهر أحياناً فى سخرية الباشوات الأتراك ؛ فنحو عام ١٧٨٦، وإبان حملة القبودان حسن باشا الجزايرلى، امتعض أحد الباشوات المرافقين للأخير من خطاب رفعه الأمراء المماليك من جماعتى مراد بك وإبراهيم بك باللغة التركية (١٧٨٦) ؛ إذ امتعض الباشا من ركاكة الأسلوب الذى كتب به الجواب ، ووصف الكاتب "بالجهل بصناعة الإنشاء" ![٣٤]، وربما يُفسر ذلك توقف الجبرتى فى تراجمه عند كل من كان يتمتع بمعرفة " اللسان التركى " ، سواء من بين المماليك أو من غيرهم ؛ إذ فيما يبدو اعتبر هذا أحد إمارات الفرادة والتميز التى يتعين تسجيلها عند التعريف بشخصية المترجم ، ويُشير إليه عادة بقوله "مهر فى اللغة التركية "[٣٥]. ولعل هذه النُدرة النسبية فى ممارسة اللسان التركى هى ما استرعت انتباه بونابرت زمن الحملة ليستغلها سياسياً فى تبرير سقوط شرعية العثمانيين فى حكم مصر : فنجده يُصدر فى أحد أوامره اليومية ما نصه :" إنه ليتعارض مع القرآن أن يأتى العثمانيون من القسطنطينية (استانبول) لإدارة العدالة لقوم لا يفهمون لغتهم"[٣٦]، وفى وثيقة أخرى يقول صراحة :" إن اللغة التركية هى لغة أجنبية بالنسبة للأهالى، فهى تماماً مثل اللغة الفرنسية"![٣٧].

هاتان الملاحظتان (كتابة الجوابات باللغة العربية شبه العامية / فى مقابل الجهل النسبى للبكوات المماليك باللغة التركية) تُشكلان انطباعاً بحدوث تطور مس بدرجة عميقة مكون الهوية الثقافية لجيل أمراء المماليك أواخر القرن الثامن عشر؛ حيث بدت ثقافتهم أكثر محلية بقدر ما أنها كانت أكثر ابتعاداً عن ثقافة المركز العثمانى ، وهو ما يُغاير الوضعية الثقافية واللغوية التى كان عليها حال نظرائهم من مماليك القرنين السادس عشر والسابع عشر الذين كانوا بالرغم من خلفياتهم الثقافية المختلفة ، إلا أن الكثير من بينهم كان يُجيد بدرجات متباينة التحدث باللغة التركية والقراءة بها ، وهو ما يُظهره اقتناءهم للكتب التركية المسجلة فى تركات العسكر[٣٨]، كما كانوا يحتفظون إلى جانب ذلك بلغتهم الأم

القوقازية (بلهجاتها المختلفة) أو بغيرها ، وقلة منهم كانت تعرف اللغة العربية ، وتستعين عادة بالمترجمين العارفين باللسان التركى، فيما انقلب الوضع فى الربع الأخير من القرن السابع عشر إلى غلبة التحدث بالعربية والكتابة بها بشكل أساسى ، وهو ما تؤكده المصادر التى وصلتنا عن هذه الفترة[٣٩].

بيد أنه يتعين أن نضع فى الاعتبار بأن إجادة المملوك بهذه الصورة الملفتة للنظر التى تُظهرها الجوابات ، التى تستند إليها هذه الدراسة ، فى التعبير عن نفسه وأفكاره باللغة العربية ، واستخداماته المكثفة لمفردات وأساليب شائعة فى قاموس العامة ، لم يأت صدفة ، كما لم يُمثل ظاهرة مفاجئة بالقدر نفسه ؛ وإنما نرى أن ذلك جاء معبراً عن نهاية مرحلة من التطور ، وهو تطور طويل الأجل ، يضرب بجذوره حتى قبل مجىء العثمانيين أنفسهم للمنطقة.

أجل ، كان سلاطين المماليك (١٢٥٠ –١٥١٧) – كما تُظهر ذلك بوضوح دراسة حديثة أجراها خالد يوسف[٤٠] ، يعرفون العربية إلى جانب التركية القبجَاقية[٤١]، والبعض الآخر منهم كانوا يجهلون العربية تماماً، فيما كان آخرون يجهلون التحدث باللغتين العربية والتركية معاً ، ولا يتحدث سوى لغته الأم كاللغة الچركسية مثلاً ، لكن ذلك جعل العديد من سلاطين هذه الحقبة يعتمدون فى التواصل مع المجتمع من خلال المترجمين ، وهو ما مثَّل فى كثير من الأحيان أحد معوقات التواصل. وكان السلطان الذى لا يجيد التحدث بالعربية بشكل مفهوم ، يجرى وصفه بـ "الاغْتَم "[٤٢]. وهو وصف لا يخلو من دلالة احتجاج أدبى؛ ولذا كان يستوقفهم السطان الذى يعرف العربية، فيشيدون به بشكل خاص. والواقع أنه ما بين شجر الدر (مبتدأ عصر سلاطين المماليك) – والتى كانت تجيد كتابة جواباتها باللغة العربية الدارجة[٤٣] – وقانصوه الغورى (آخر سلاطين المماليك) – الذى كان يقرض الشعر باللغتين العربية والتركية – مسافة زمنية طويلة ، أظهرت مباينات فى الخلفيات الثقافية للسلاطين المماليك، ولو أن هذه المسألة لا تزال فى حاجة إلى استكشاف لظروفها المعقدة ودلالات تطورها بالنسبة لإشكالية

التواصل مع المجتمع المصرى الذى حكموه على مدار قرنين ونصف القرن.

وما من شك أنه مع مجىء العثمانيين إلى المشرق العربى فى مطلع القرن السادس عشر ، تهيأ المجال ليشهد من جديد تكثيفاً لاستعمال اللغة التركية كلغة لجماعة النُخبة الحاكمة. وبدا أثر الدولة الإمبراطورية الجديد واضحاً فى جذب البكوات المماليك نحو ثقافة المركز العثمانى. فقد ذكر على أفندى فى كتابه "سفر نامه" أن "جماعة المصرلية" (أى المماليك) ، فى النصف الأول من القرن السابع عشر، كانت تدير نقاشها فيما بينها باللغة التركية[٤٤]. بيد أن هذه الصورة سوف تتغير ملامحها بشكل مؤكد فى النصف الثانى من القرن السابع عشر ؛ كنتيجة لعوامل موضوعية ، ربما كان أبرزها تراجع قوة الدولة (لا سيما بعد عام ١٦٨٢) واندماج الأوچاقات العثمانية نفسها فى المجتمع ؛ وهى الظاهرة المفاجئة التى جاءت نتيجة لضعف القوة الشرائية لمرتبات الجنود ، وهو ما أدى بمرور الوقت إلى ضعف الفرق العثمانية نفسها ، التى عانت منذ ذلك الحين من قلة الأعداد، بعد توقف الدفشرمة (سنة ١٦٣٨) ، وما كان من التحاق المدنيين (أولاد العرب) بالأوچاقات ، تدفعهم الرغبة فى شراء الحمايات العسكرية عبر الانتساب لتلك الفرق. وقد درس هذه المسألة ونتائجها حسام عبد المعطى ، وانتهى فى دراسته إلى أنها طبَّعت الفرق العسكرية بالطابع المحلى ، وأن العديد من أبناء عائلات التجار والحرفيين تربوا داخل الأوچاقات تربية عسكرية ، وتدرجوا فى مراتبها العسكرية خلال الربع الأخير من القرن الـ ١٧م. وباتت تركات أغلب التجار والحرفيين تُسجل فى محكمة القسمة العسكرية![٤٥]. وأشار أندريه ريمون إلى أن حركة التحاق الحرفيين والتجار بالأوچاقات صاحبتها حركة أخرى تمثلت فى إقبال العسكر أنفسهم على ممارسة الحرف المختلفة والتى بمرور الوقت تحولت إلى ممارسة معتادة ، بل ومن المفارقات أن بعض أغوات العسكر تولى مشيخة طوائف حرفية عديدة (كالسروجية ، الحريرية، الدلالاين، النحاسين التوفقجية...إلخ). ويُبين ريمون بأن هذه الممارسات بدأت كظاهرة منذ نهاية القرن السادس عشر[٤٦].

لقد أصبح الاندماج فى الاتجاهين إذن واضحاً ، وهو ما جعل العسكر العثمانلية منغمسين فى علاقات مكثفة مع المجتمع الحرفى ، وهو وضع ساعد على خلق حالة من التماهى فى الثقافة المحلية ، وتمثل الكثير من العادات والتقاليد ، وممارسة اللغة السائدة فى مجتمع كانت لغته الأساسية فى التواصل هى اللغة العربية.

ويُمكن أن نجد لهذه العملية أثرها الثقافى ، فى غلبة التحدث بالعربية بين العسكر العثمانلية انفسهم، ولا يصعُّب التدليل على ذلك : فكتابات الأغوات العثمانيين نفسها التى اصطلح على تسميتها بـ" أدبيات الأجناد" (والتى كانت موجهة للعسكر العثمانلية) كُتبت فى شكل مرويات شعبية باللغة العربية ، وتمت صياغتها بالتركيبات العامية نفسها[٤٧] وباستخدام كثير من الألفاظ والمصطلحات التى نجدها تُشكل بنية المفرادات المستخدمة فى كثير من جوابات مراد بك والبكوات المماليك التى ندرسها هنا؛ الأمر الذى يكشف عن ملمح مهم ومستمر من ملامح الاستيعاب الثقافى للأجناد العثمانلية عند أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر.

ومما زاد من استمرارية هذه الظاهرة فشل كل محاولات الدولة لإخراج "أولاد العرب" (الذين جرى وصفهم بالغرباء) من الأوچاقات[٤٨] ، واتسع الاندماج الثقافى للعسكر إلى درجة اختلت معها قواعد الآداب والسلوكيات العسكرية المعتادة ، يُفسر ذلك اهتمام أحد الأغوات العثمانيين ، فى سبعينيات القرن الثامن عشر ، بوضع مخطوط لتذكير هؤلاء العسكر بمختلف أطيافهم ، بأصول الآداب العسكرية القديمة التى كانوا عليها زمن الحاج "بكتاش" أبو الانكشارية ، لكن الأهم والأكثر دلالة أنه وجه خطابه إليهم باللغة العربية تحت مُسمى طريف : "الطريقة والأدب "[٤٩] ؛ والتى صاغها بالمستوى الكتابى الأقرب إلى اللغة المنطوقة كذلك ، ويُلاحظ بأن جميع التوجيهات والضوابط الأخلاقية والطقوس الرمزية المختلفة المعبر عنها بصيغ أو عبارات أو نشيد ، وما تخللها من حوارات سردية ،

تنتمى إلى الأدب الشفاهى، نجدها كلها مُصاغة بالعامية الوسيطة التى تُبين، بما لا يقبل الشك، أنها كانت غالبة على لغة الكلام والحوار بين العسكر بعضهم البعض. وتبدو هذه النتيجة طبيعية، إذا وضعنا فى الاعتبار أن أغلب الأجناد الأوچاقلية ، صاروا من المغاربة والشوام والمصريين ، إلى جانب ثلة من الروملى والقابى قولية ، الذين استقروا بمصر وتصاهروا مع أعيان التجار والحرفيين ، ولم تعد بهم حاجة للعودة إلى وطنهم الأم[٥٠] . هذا فضلاً عن أن كثيراً من المماليك من أتباع الشيوخ والتجار وكبار الحرفيين، بما فى ذلك أتباع البكوات المماليك أنفسهم ، تم الزج بهم فى كتائب الأوجاقات[٥١]، وبداهة كان يتم ذلك بعد فترة من تلقينهم مبادىء القراءة والكتابة باللغة العربية ودروسًا فى الفقه وبعض آداب السلوك العامة ؛ مما غمر الأوجاقات بتيار الثقافة المحلية العربية.

وفى خط متوازٍ تقريباً ، صاحب هذه الظاهرة انفتاح طبقة المماليك على المجتمع ، وإن كان يبدو أنها بدأت من الأخير ، وليس من المجتمع المملوكى نفسه الذى كان يحظر، بين الحين والآخر، على الأهالى شراء المماليك البيض ؛ فقد تمكن أولاد البلد من اختراق الحظر، وأقبلوا على اقتناء الرقيق الأبيض منذ نهاية القرن السادس عشر[٥٢]. وبمرور الوقت كانت الظاهرة تُفصح عن نفسها ؛ حيث دخل فى شراء المماليك العلماء والتجار وأعيان الحرفيين ، وهو ما أثار سخط البكوات الذين شعروا بأن امتيازاً خاصاً بهم تم تجاوزه ، ويظهر ذلك فى ترادف صدور الأوامر المتكررة ، التى تحظر شراء المدنيين للمماليك البيض. لكن المجتمع رفض فرمانات الحظر والتهديد ، ومثلما فشلت الدولة فى إخراج "أولاد العرب" من الأوچاقات العثمانية ، عجز البكوات عن الحد من ظاهرة اقتناء الأهالى للمماليك البيض : ففى وقت متأخر يصل بنا إلى العام ١٧٣٦ تشهر المناداة بالقاهرة بأن على "أولاد البلد والتجار أن لا يشتروا المماليك والجوارى البيض ، والذى عنده منهم شىء يبيعه ولا يقتنيه، ولا يستخدموا إلا العبيد والجوارى السود .. وأن كل من تعاطى بيعهم أو شرائهم فعليه القبض بأغاة مستحفظان ، ويُقتل وينهب ماله ، ومن حذر فقد أنذر" . هذا الفرمان الذى حمل التهديد

والوعيد أثار توتر الأهالى ، وبحسب تعليق ابن عبد الغنى ، أحد المراقبين المعاصرين " هاجت البلد" !(٥٣) واضطر البكوات المماليك إلى غض الطرف عن هذه الممارسة التى ظلت تتسع حتى ظهر جيل من البكوات المماليك تربوا فى كنف العلماء والتجار والحرفيين!.

إن أهمية هذه العملية أنها ساعدت على إمداد البيوت المملوكية بعناصر مملوكية ، بل ومحلية (مصرية) مزودة بمعين هائل من الثقافة المحلية ، وتتمتع بمعرفة جيدة باللغة العربية. لقد أصبح المجتمع متقبلاً فكرة أن مجتمع الطبقة المملوكية صار صناعة مشتركة ، تتسع لمساهمة كل من البيوت المملوكية وكبار الأعيان المدنيين ، الأمر الذى ساعد على سرعة تكثيف التطبيع الثقافى للمماليك فى القرن الثامن عشر . والأمثلة عديدة فى تراجم الجبرتى ، ومنها على سبيل المثال حالة أحمد بك شنن الذى تربى عند شيخ الأزهر الشيخ محمد شنن المالكى(٥٤)، والأمير حسن بك سوق السلاح الذى وصل إلى مرتبة سنجق ، تربى فى بيت الشيخ أبى المواهب البكرى ؛ حيث كان مملوكًا لجاريته الست صفية(٥٥). والأكثر من ذلك هو قناعة الأهالى بإمكانية الدفع بأبنائهم للالتحاق بالبيوت المملوكية ، ولدينا حالة "أحمد بك السكرى" التى ذكرها كارستين نيبور ، فأشار إلى أنه " كان ابن تاجر سكر مسلم وحر ، دفع به أبوه للالتحاق ببيت إبراهيم كخيا، الذى رباه وعلمه الفروسية، وترقى فى الرتب العسكرية إلى أن صار سنجق السويس!(٥٦).

بيد أنه من ناحية أخرى يتعين ألا نغفل عن تأثير الثقافة الإسلامية والتعليم الدينى للمملوك داخل بيوت ساداتهم المماليك أنفسهم(٥٧) ؛ ففور شراء المملوك وضمه لبيت سيده كان يتم تحويله إلى الإسلام ، وتحفيظه بعضًا من سور القرآن الكريم ومبادئ القراءة والكتابة العربية ، فضلاً عن تلك الصلة التى كان يكونها فى مرحلة تالية من حياته مع جماعة العلماء والصوفية ، والتى يؤكد مايكل ونتر أنها لابد وأنها حسنت من مستوى اللغة العربية عندهم، كما أن أولاد المماليك

الذين ولدوا بمصر لم يكونوا غرباء عن اللغة العربية[٥٨]. ولدينا مرة أخرى نماذج متعددة فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، لعل أبرزها حالة الأمير إبراهيم كتخدا البركاوى (المتوفى فى عام ١١٩٨ هـ / ١٧٨٤م) الذى قرأ القرآن فى صغره ، وتعلم تجويد الكتابة بالخط العربى ، يقول الجبرتى إنه " فتح بيت سيده بعد وفاته ، اشترى المماليك ودربهم فى الآداب والقراءة وتجويد الخط .. وكان بيته مأوى الفضلاء وأهل المعارف والخطاطين، واقتنى كُتباً كثيرة جدًا فى كل فن وعلم ، حتى إن الكتاب المعدوم إذا احتيج إليه لا يوجد إلا عنده، ويعير الناس ما يرومونه من الكتب للانتفاع فى المطالعة والنقل"[٥٩].

إن ظاهرة التحول والانفتاح على الثقافة المحلية التى استغرقت أكثر من قرن، تعود فى الحقيقة إلى الربع الأخير من القرن السابع عشر؛ وكان أول من رصد مرحلتها الأولى وتحدث عنها كظاهرة هو أوليا جلبى، (خلال زيارته الطويلة نسبياً بين عامى ١٦٧٢ -١٦٨٢، والتى أكسبته بعداً تأمليًا خلال احتكاكاته الواسعة والمكثفة بالطبقة المملوكية) : فقد لاحظ حدوث تحول فى اللغة التى كان يتحدث بها المماليك، وأنهم لم يعودوا طبقة مغلقة على نفسها، وأنهم عجزوا عن أن يُحافظوا على لغتهم الأم وموروثهم الثقافى، ولنقرأ معه ما كتبه فى هذا الصدد:"لقد اقتضت الإرادة الإلهية الأزلية أن يفد هؤلاء المماليك إلى مصر، فيُباعوا بيع الرقيق .. فتربوا فى كنفها، وتدرجوا فى مضمار المعارف والفنون والآداب والكمال، حتى صاروا ذوى مكانة واعتبار، وقد بلغ بهم السن إلى الشيخوخة واكتمال العمر، بيد أن مصر من البلاد العربية، فكان على هؤلاء المماليك أن يدعوا لهجاتهم الخاصة الثلاث (الچورچية والأباظية والشركسية) وأن يقبلوا على التكلم باللغة العربية "[٦٠] ، ومن ثم صارت تعبر عن هويتهم الجديدة.

بيد أن أوليا جلبى بيَّن أن هذا الاندماج فى الثقافة المصرية كان تدريجيًا، وأن تخلى المماليك والعثمانيين عن لغاتهم الأم لم يكن كاملا "فقد اخترعوا لأنفسهم

لهجة خاصة ذات عبارت تتألف من كلمات عربية وتركية خليطة يُقال لها (ملمع)[٦١]. وقد أفرد أوليا چلبى لها عدة صفحات يرصد الكلمات الدخيلة وما يقابلها فى اللغة العربية ، وأى نظرة على تلك الكلمات ومعانيها سيتبين إلى أى حد بدأت كلمات عديدة تتسلل إلى قاموس اللغة الهجينة المستخدمة عند المماليك ، وكذا مدى تأثر اللغة العامية المصرية ببعض تلك المفردات الشائعة الاستخدام فى اللغات القوقازية. وبعد أوليا چلبى بنحو القرن، سوف نجد جوابات مراد بك تُظهر تمكن المماليك من التحدث بلغة العوام التى تتقارب من حيث الشكل وعلى مستوى بنية المفردات والتراكيب الأسلوبية من جوابات الأهالى المصريين، الأمر الذى يُبين أن "لغة ملمع" ، التى تحدث عنها أوليا چلبى فى القرن السابع عشر، لم تُشكل سوى مرحلة وسطى بين تمسكهم بلغاتهم الأم واللغة التركية وبين انغماسهم فى مضمار ثقافة المجتمع الحاضن لهم والتحدث بلغته العربية وتُمثل قيمه وآدابه التى حدثت على نطاق واسع طيلة القرن الثامن عشر[٦٢].

وبوسعنا التأكيد على أن اللغات القوقازية ، بمرور الوقت ، وبخطى سريعة الإيقاع فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، تراجعت فى صالح غلبة اللغة العربية والثقافة المحلية ، وتحولت فى أحسن أحوالها إلى " لغة ذاكرة " ، كانت تفقد بمرور الوقت أهميتها فى الاستعمال اليومى ، وبشكل يمكن أن نفترض معه اقتصارها على ممارسة محدودة لا تتجاوز الوسط الچورچى داخل البيوت والقصور، مما أدى إلى فقدان الاهتمام بها وغلبة التحدث بالعربية الدارجة التى اكتسبت أهمية كبيرة كلغة للحديث وللكتابة ولكل المعاملات، بما فى ذلك صياغة الوثائق المهمة فى المحاكم الشرعية. ومن هنا لا يُدهشنا كثيراً حجم الصعوبة التى واجهت المملوك حين اضطر إلى الكتابة لأهله فى جورجيا ؛ حيث انقطع عن الممارسة الكتابية بها لسنوات أو عقود طويلة. وفى أحد الجوابات الأربعة المكتوبة باللغة الچورچية التى درسها كل من چوتشيا ودانيال كريسليوس، والتى تعود أيضاً إلى أواخر القرن الثامن عشر ، أبدى الأمير مراد أغا أسفه واعتذاره لسيده فى

چورچيا بقوله : " إذا كان جوابى هذا قد اشتمل على أخطاء ، فذلك بسبب عدم وجود كاتب يجيد الكتابة باللغة الچورچية فى مصر! "[٦٣].

إن هذا ليظل شاهداً على ضعف مقدرة البكوات بمرور الوقت على ممارسة الكتابة باللغة الأم (الچورچية) ، وهو أمر يسهُل تفسيره ؛ فقد تعرضوا للخطف بالقوة وهم بعد أطفال فى سن مبكرة (بين ١٢ إلى ١٤ سنة)[٦٤] ، وبعضهم لم يكن قد نال حظاً من التعليم ، وبعضهم الآخر لم يتلقن سوى مبادىء بسيطة من القراءة والكتابة ؛ وهو أمر يجعلنا نفترض بأن مرحلة إعادة تلقين أو تعليم المملوك القراءة والكتابة بعد انتقاله إلى مصر، قد حولت لغة المجتمع الحاضن وثقافته إلى جزء أساسى من مكونات هويته الجديدة التى تطبعت بالطابع المحلى المكثف فى القرن الـ ١٨م على وجه الخصوص. وإحدى الشهادات المهمة هى لجارية تُدعى زليمة (جورجية الأصل) ، كانت زوجة أمير مملوكى لقى حتفه بمعركة الأهرام (إمبابه) عام ١٧٩٨ ، والتى سجل شهادتها چوزيف مارى مواريه (وهو ضابط فى جيش الاحتلال الفرنسى) ، بينت اعتمادها الأساسى على اللغة العربية ، فى حواراتها وكتابة الجوابات المتبادلة معه (حيث جمعتهما قصة حب خاصة)[٦٥].

وهنا تتجلى أهمية جوابات مراد بك ؛ إذ تؤكد هذه النتيجة بصورة قاطعة، فالرجل لم يعرف سوى اللغة العربية فى الكتابة ، والجبرتى نفسه يؤكد بأنه كان يتدرب على تجويد الكتابة بالخط العربى الذى تعلمه على يد خليل أفندى البغدادى ، الذى صار أحد ندماء الأمير مراد بك ، ومن المترددين الدائمين فى صالونه الثقافى[٦٦] الذى كان يحضره شيوخ وعلماء من الجامع الأزهر وكبار الشعراء. وفى جوابات مراد بك نجده يتبادل الرسائل مع نظرائه البكوات المماليك (حسن بك الجداوى وإبراهيم بك) باللغة العربية[٦٧] لا بالچورچية أو التركية أو بغيرهما من اللغات القوقازية الأسيوية الأخرى، بالرغم من أن ثلاثتهم كانوا من جورجيا!. وهو من دون شك قرينة مهمة على بلوغ ظاهرة التحول اللغوى

الجماعى عند المماليك لذروة نضجها فى أواخر القرن الثامن عشر وقبل مجىء الحملة الفرنسية.

وعلى ذلك فإن كتابة جوابات البكوات المماليك باللغة العربية شبه العامية ، كان نتيجة متوقعة لسياق تطورى ثقافى بالدرجة الأولى ، استغرق معظم القرنين السابع عشر والثامن عشر. وأنه يصح أن نعتبر الجوابات مصدراً أدبياً جسد بوضوح حقيقة التغير الذى أصاب بدرجة عميقة مكون الهوية الثقافية للطبقة المملوكية التى باتت أكثر انفتاحاً من ذى قبل على الثقافة المحلية. إن الدلالة ذات المغزى هنا أن امتياز الإغلاق الطبقى تفسخ[٦٨] ، وباتت الملامح الثقافية للمجتمع المصرى الحاضن باهتة على تكوينة المملوك وتنشئته الثقافية. وفى هذا السياق يُمكن أن نفهم مغزى اصطلاح أطلقه الأهالى وسجلته المصادر المعاصرة وهو "المصرلية" المعنى به الأمراء المماليك؛ تمييزًا لهم عن "عسكر الرومية أو الروملى" العثمانيين[٦٩] ؛ إن القيمة الرمزية أكبر بكثير مما يعنيه اصطلاح يُمايز بين نوعين من العسكر ، ففى مطلع العصر العثمانى (ق ١٦م) كان الأهالى يوسمون الجميع مماليك وعثمانلية بـ "الترك"[٧٠] ، فى حين جسد اصطلاح "الأمراء المصرية " أو "المصرلية" واقع الاندماج الثقافى الذى تحقق والذى أدى إلى تماهى السلطة فى ثقافة المجتمع ، لتستوعبهم داخل محيطها الثقافى ، واصفة إياهم باصطلاح لا يخلو من مغزى " أهل البلاد " ، فى حين قصرت اصطلاح "الأغراب" على العساكر الرومية دون غيرهم[٧١].

الجوابات وتمثلات الذات المملوكية

لنطرح فى البداية هذا التساؤل: كيف يمكن للذات المملوكية أن تُقدم نفسها عبر الجوابات ، وبالأخص عبر قاموس مفردات اللغة العامية الشائعة فى بنية كتابة الجوابات ؟ وما هى الدلالة وراء قراءة مفاهيم معينة آمنت بها الطبقة المملوكية واستعارتها من منظومة الأصول القيمية التى كانت تحكم سلوكيات وثقافة العامة ؟ إن هذا السؤال الصعب، فى الحقيقة ، يحتاج إلى المزيد من

التأمل ، ويحتاج أيضاً إلى إفراد دراسة مستقلة ، لكننا هنا سنكتفى بالبحث عن الدلالات التى تُحيلنا إلى فهم صورة الاندماج المملوكى فى ثقافة المجتمع ، وما يمكن أن يكشف عنه من أبعاد معينة تتعلق بهذه الظاهرة الجديرة بالدراسة.

وبرغم الطبيعة الرسمية للجوابات ؛ كونها متبادلة بين چنرالات عسكريين (مماليك وفرنسيين)؛ إلا أنها تسمح باستكشاف الجانب الذاتى وراء النصوص ، بل الأكثر من ذلك أنها تنقلنا بدرجة عميقة إلى مناطق لها طابع الخصوصية فى حياة المملوك ، وأفكاره ، ومنظوره إلى نفسه وإلى أتباعه، وقيمه الاجتماعية؛ مما يجعل الجوابات تتجاوز الدلالات السياسية المباشرة الظاهرة فوق السطح. وفى الحقيقة لم يكن ذلك صدفة على الإطلاق ؛ إذ إن طبيعة الشك التى تزايدت إزاء الأمير مراد بك وشبكته الاستخبارتية الواسعة ، واستمرارية اتصالاته بالبكوات المماليك فى المعسكر العثمانى ببلاد الشام ، كانت قد أثارت الريبة لدى القائد العام للجيش الفرنسى (الچنرال مينو) ، وخاصة مع تنامى أخبار الرقابة على أمير الصعيد مراد بك ، والتى أظهرت شكوكاً فى لجوء مراد بك إلى تسليح كل من كان يستطيع ضمه من البكوات المشتتين فى زمن الاحتلال[٧٢].

ومن هنا حدث فى الجوابات نقلة نوعية فى مستوى الكتابة؛ إذ بدا مراد بك معنيًا بتعريف الآخر الفرنسى بالقيم التى يؤمن بها المملوك وبالمجتمع الذى يُمثله كاستراتيچية كتابية فى الدفاع عن نفسه وعن توجهاته السياسية ، فبدت الكتابة بالجوابات كأنها نافذة يُمكن أن نطل من خلالها على الذات المملوكية من الداخل، الأمر الذى جعل الجوابات تبتعد عن صرامة المعلومات العسكرية والسياسية. بدأ ذلك تحديداً منذ الرسالة رقم ٥٩ التى أعرب فيها مراد للچنرال دونزلوه عن قلقه من القائد الجديد ؛ متمنياً، عبر استخدامه لاصطلاح "العشم" (وهو اصطلاح غائر فى تراث الذاكرة الشعبية المصرية)، استمرارية السلام والتحالف المملوكى الفرنسى :" وبقا عشمنا فى حضرته السعيدة [الچنرال مينو] حكم ما كان عشمنا فى حضرة كليبر صارى عسكر فى كامل الوعد الذى أوعدنا به .. وكان محب لطرفنا ويعشمنا بكامل الخير"[٧٣]. ما يُظهر درجة من القلق والتوجس

بشأن استمرارية علاقة التحالف، لكنه يُظهر من جانب آخر ، وهو الأهم بالنسبة لدراستنا، حالة الانفتاح الثقافى المملوكى على قاموس العامة وأعرافهم، ينهلون منه بما يعبر عن أفكارهم أو توجهاتهم السياسية. هذا فضلاً عن تلبيتها بالقطع لما يتعلق بإدارة شئونهم الحياتية الخاصة.

إن مكونات صورة الذات المملوكية وأبعادها لتتواءم مع مفاهيم المصطلحات ودلالتها الوظيفية التى لجأ إلى استخدامها مراد بك وأتباعه البكوات المماليك للتعبير عما تُمثله كينونة المملوك؛ فقدم من خلال الجوابات منظورات متنوعة تفيض بتمثلاته الذاتية. فمثلاً كان من المتوقع أن تُفسح الجوابات عن معانى تتصل بأساسيات الفروسية المملوكية ، وخاصة فى ظل وعى مراد بك بخطورة التحدى الوجودى الذى تواجهه الطبقة المملوكية منذ مجىء الفرنسيين، وتوجساته قبل مستقبل لا يُمكن التنبوء به.

من هنا نجده يركز فى الجوابات على طرح مفهوم "الكلمة" كشرف وأمانة وواجب وقانون، والتى تبلور جميعها مفهوماً أخلاقياً فى حياة المملوك. ويمكن الحصول على هذه الصورة من خلال مقاربة نصوص الجوابات باعتبارها مجسدة للأنا المملوكية ، وباعتبارها أيضاً مخزوناً للمعانى والدلالات المعبرة فى النهاية عن ملامح الهوية المملوكية التى أراد أن يرسم خطوطها مراد بك وأتباعه فى عيون الفرنسيين أنفسهم، وذلك بصرف النظر عن درجة واقعيتها أو مصداقيتها؛ فالصورة فى حد ذاتها فعل سعى إلى تجسيده فى شكل مطالب أحياناً ، وفى صورة احتجاج أدبى أحياناً أخرى. لكن ذلك كله اعتمد فى صياغته على استعارات متعددة من معجم القاموس العامى ، وهو الأمر الأكثر دلالة فى التأكيد على ما ذهب إليه المتخصصون فى علم اللغة الاجتماعى ؛ حيث ينظرون إلى مسألة تعلم لغة ما باعتباره " تكييفاً اجتماعياً " أكثر من كونه اكتساباً، ويرون أن تعلم اللغة لا ينفصل عن تعلم تُراث هذه اللغة وما تتضمنه من أفكار وقيم ، وما ترتبط به من تصورات وسلوكيات ، فالمتعلمون يكتسبون اللغة ويتشربون معها

مضامين اجتماعية كثيرة مثل القيم والميول والعواطف وغيرها[٧٤]. فاللغة ليست مُحايدة ولا موضوعية ، بل ممتزجة امتزاجاً قوياً بموروثها الثقافى والاجتماعى ، وتشكل جزءًا كبيراً من طريقتهم فى الحياة. إن تعلُّم اللغة هو فعل تمثُّل ، ويؤكد البعض استحالة فصل التمثُّل عن استخدام اللغة فى التواصل ، وأن القيمة الاستعمالية أو الاتصالية للغة مرتبطة بتمثُّل القيمة المعرفية والرمزية ، وتُعبر عن ثنائية متلازمة[٧٥].

لقد وجد مراد بك فى معين لغة العوام الدارجة التى استوعبها من قبل ، ما يُمكن أن يُعبر بشكل ملائم عن قاموسه السياسى ، سواء فى إدارة مواقفه السياسية، أو فى مُكاتباته مع الفرنسيين. سنجده مثلاً يعتمد بصورة متكررة على مفهوم نفى " الغش" أو " الموالسة " الشائعتين فى الاستعمال عند العامة؛ فيكتُب للفرنسس بأنه قطع على نفسه عهدًا بالحفاظ على تحالفه معهم ، وكلمته هى الضمانة لذلك ، وهنا تجد المفردات بتركيبتها الشفوية الدارجة تفوح فى جمله وعباراته كلها ، منها قوله : "الكلام لم فى غش .. الغش لم نرضاه .. لم هناك غش فى قلبنا .. إحنا ماشين على الصدق والمحبة .. ما فى كلام زايد وناقص"[٧٦]. ويطرح التزامه بإمدادهم بالمعلومات الاستخباراتية التى يتحصل عليها عبر استخدامه اصطلاح " الواجب "، وهو مفهوم أخلاقى أيضاً ، لكنه قرنه بمفهوم الكلمة /الشرط ، فنقرأ فى جوابه رقم ٧٣ : "واجب علينا نخبركم حكم ما شرطنا معكم إن كامل ما يورد علينا من الأخبار نعرفكم عنه"[٧٧].

إن علاقة التحالف كما يراها مراد بك لا تضمنها وثيقة ممهورة كتلك التى وقعها مع صارى العسكر كليبر (فى ٥ أبريل ١٨٠٠)[٧٨]، وإنما تستند فى الأساس إلى احترام الكلمة ، والكلمة عنده شرف وعرض. ويُكرر تبريراته فى الجوابات ، غير مرة ، بأن العثمانلى صار هو الخصم المشترك ، أما الفرنسيين فهم الحليف القريب ؛ كقوله :" واحنا لم بقى لنا أحدًا محبين خلاف الجمهور الفرنساوى ولم بقى لنا أمن من طرف العثمانلى مطلق وأنتم تعرفوا ذلك لم

تعوزوا من يُعرفكم"[٧٩] . ولذلك استخدم فى التعبير عن رفضه لتنامى الشك فيه أو الاستماع إلى الوشايات كلمات بسيطة متداولة بين العوام ، من قبيل : "تسليط المكرهين ".. " كلام المنافقين"[٨٠]. ولتهدئة التوتر ونفى الشكوك ، يستعير اصطلاح شائع الاستعمال بدرجة كبيرة وملفتة مثل " مسك الخواطر" ، الذى لا يُمكن رصده فى القواميس المعجمية ، وقد أحسن استخدام دلالاته سياسياً : "انتم بقيتوا محبنا وأصحابنا وواجب علينا وعليكم راحة بعضنا ومسك الخواطر وإن شاء اللَّه تعالى المحبة دايمًا فى الزيادة "[٨١]. وقد نوَّع من استخدام المفردة الحاضرة بطول الجوابات ، فتارة يستخدمها فى التعبير عن الاهتمام أو الطلب "إن خاطرنا عندكم كتير قوى" ، " وخاطرنا نعرف من حضرتكم إذا كنتوا .." ، "بلغنا انكم كلفتوا خاطركم وتعبتوا فى جرتنا.." ، وتارة أخرى قام توظيفها كمرادف لكلمة "العشم" كقوله: " جبر خاطر .. جبر الخواطر"، وتارة ثالثة كتعبير عن الالتزام بتنفيذ طلب معين " لم نقصر لاجل خاطركم" ، وأخيراً وليس آخرًا كتعبير عن التوصية على أحد أتباعه أو المستجيرين به ، كقوله " لأجل خاطرنا تريحوه "[٨٢] ، و"توابعنا توابعكم والحال واحد " ، و"خدامنا خدامكم" إلخ. ويتضافر مع كل ذلك تعبيراته عن احترامه للضبط وللقانون ، والذى استخدم بشأنهما مفردة "الستر"، وقام أيضاً بتنويع استعمالاتها كما عند ممارسات العامة: "سترتنا سترتكم وراحتنا على اللَّه تعالى وعليكم ولم تخلوا العدويين .. يفرحوا فينا "، "مرادنا الضبط والسترة معاكم"، " لاجل سترتنا معاكم"، "إحنا مرادنا ضبط الغز لاجل سترتنا من الجمهور"...إلخ. ومرة أخرى نجده يستخدمها بمعنى "العشم" كقوله حين أرسل هدية للچنرال دونزلوه كانت عبارة عن حصان عربى، " لم هو مقامكم لكن المحبة تستر"[٨٣] ...إلخ . أو تعبيره عن مفهوم "قلت الأدب"[٨٤] (ويكتبها بالتاء المفتوحة كما فى جوابات العوام)، والتى عنى بها تجاوز الأعراف والقيم والأصول المرتبطة بالالتزام بالواجب والأصول. وغير ذلك حتى لا أُطيل من صيغ واستعارات مُعجمية مستقاة من مُعجم متقادم ، ذات نكهة شعبية أصيلة، لأعراف العامة وممارساتهم اللسانية المعتادة ، والتى تحيلنا فى النهاية على

مرجعية ثقافية غارقة فى المحلية ، استلهمتها الطبقة الحاكمة المملوكية عبر صيرورة ما يُمكن تسميته بـ "المواءمة الثقافية" مع ثقافة المجتمع الحاضن ، لكنها كذلك تؤكد الشعور الجمعى المتولد عن استخدام اللغة وما تختزنه من قيم سلوكية وتواصلية.

وبعيداً عن دلالات اللغة ، فإن إعجاب الچنرال دونزلوه بجوابات مراد بك ، ليس - بداهة - لوقع الكلمات العامية ودلالاتها، لأنها كانت تُترجم له إلى اللغة الإيطالية التى لعبت دور اللغة الوسيطة بين الجانبين ، وإنما أُعجب بمضمون ما كان يطرحه فيها من مبادىء وقيم تُعبر عن ملامح مهمة من فروسية المملوك وهويته ، وخاصة توقفه عند مفهوم الالتزام بشرف الكلمة كما ذكرنا آنفاً : ففى إحدى مراسلاته إلى الچنرال مينو كتب دونزلوه يقول :" إن مراد بك شديد الوفاء والصداقة مع الفرنسيين ، وله كلمة يُحافظ عليها بحياته، وإننا لا يجب الشك فيه ، وأن مصيره مرتبط بمصيرنا، وإذا حدث لا قدر اللَّه مكروه وانقلب الحظ ضدنا ، سينضم فوراً إلينا ؛ إذ ليس لديه أى جانب آخر يناصره .. لقد حلف برأسه أنه فى حال الهجوم علينا سيُحافظ على أمن الصعيد من أول أسوان حتى أبواب القاهرة"(٨٥). إن هذا يُبين إلى أى حد نجح مراد بك فى استخدام الجوابات للتعبير عن كثير من إفكاره ومبادئه والتزاماته الأخلاقية ، وفى رسم صورة المملوكى (الفارس) فى عيون الفرنسيين، بالصيغة الشعبية التى استند فى بلورتها إلى رصيد هائل من قاموس لغة العوام.

لكن حال الچنرال دونزلوه ليس هو حال غيره من أمثال المترجمين والمستشرقين ؛ إذ ثمة مفارقة بين الچنرال والمترجم إزاء موقفه من لغة الجوابات: فإذا كان الچنرالات قد اهتموا بدراسة المضمون الذى سمح لهم بفهم الشخصية المملوكية ، فإن المترجمين والمستشرقين المصاحبين لجيش الاحتلال قد اكترثوا بدراسة ظاهرة العامية نفسها كلغة مستقلة عما وجدوه فى بطون الكتب ؛ حيث هالهم أن الجميع هناك يتحدث بها حتى علماء الأزهر، وهو ما شكَّل مفاجأة

كبيرة وصادمة فى آن. فعلى سبيل المثال نجد المستشرق چان چوزيف مارسيل (مدير المطبعة) يُسجل فى مذكراته ندمه على أنه أنفق من عمره عامين فى تعلُّم العربية الفصيحة الموجودة فى بطون الكتب ؛ إذ به يكتشف أنها غير متداولة فى الواقع ، وأن هناك ازدواجية واضحة فى اللغة المستعملة، وأن رجال الأزهر سخروا منه حين قالوا له: " أنت تتحدث كما لغة الكتاب"! ils me disaient que je parlais comme un livre ، وبقدر ما كانت صدمة قوية لچان جوزيف مارسيل ولغيره من المترجمين والمستشرقين، بقدر ما كان كشفاً مهماً، عادوا به إلى فرنسا ليذيعوه، ويتم التعريف بالعامية لأول مرة، كلهجة مستقلة(٨٦). وفى خضم تجربة الاحتلال ، اضطر المترجم مارسيل إلى تعلم العامية ، ومن أجل ذلك اهتم بجمع مفردات اللغة العامية، ونشر قاموساً لها على مطابع الحملة بعد عام واحد من الاحتلال(٨٧) ؛ ثم أعاد وهو فى فرنسا تنقيحه وطباعته مرة أخرى إبان غزو فرنسا للجزائر(٨٨). ومن دون شك شكَّلت هذه المسألة تجربة مهمة للدبلوماسية الفرنسية فيما بعد فى القرن التاسع عشر؛ إذ بات من مسوغات اختيار "ترجمان" فرنسى بالقنصلية الفرنسية فى الاسكندرية أو القاهرة أن يكون له خبرة بالواقع المحلى ومدة ممارسة للغة السائدة هناك(٨٩).

ومن المفارقات التاريخية فى هذا الصدد كذلك، أن نجد بعض المماليك الذين اصطحبوا الجيش الفرنسى فى عام ١٨٠١ ، تلجأ إليهم فرنسا لتستخدمهم كمترجمين فى حملتها الاستعمارية على الجزائر(٩٠) ، لتستفيد من معرفة المماليك باللغة العربية بلهجتها العامية ، وما أحرزوه من إتقان للغة الفرنسية ، فتم إلحاقهم بجيش احتلال الجزائر ، لكنهم هناك سوف يُفاجئون الفرنسيين ، مرة أخرى ، بأن مستوى اللهجة العامية فى شمال إفريقيا كان مُغايراً إلى حد كبير لنظيرتها المصرية.

الخاتمة

نخلص من هذه الدراسة إلى أن جوابات المماليك تُشكل مصدراً أدبياً واجتماعيا مهما ، يُمكن أن يُمكننا من إعادة طرح سؤال الهوية المملوكية من جديد. ولعل أحد أهم النتائج أننا لا يُمكن التعامل مع المملوك فى العصر العثمانى على أنه مُعطى جامد وثابت لا يتغير، لأن المماليك طوروا من وضعيتهم الاجتماعية والفكرية جيلاً بعد جيل وفق مصالحهم ، وأيضاً بحسب تطور علاقات القوة مع المركز العثمانى. ولما كانت الدولة العثمانية نفسها قد انقلب حالها بشكل فعلى منذ ثمانينيات القرن السابع عشر؛ حيث بدأت فى التراجع، فإن النُخبة المملوكية ومعها الفرق العثمانية نفسها فى القاهرة ، كانت أسرع استجابة لتغيير دورها الذى شهد نقلة نوعية فى السيطرة على الاقتصاد وتسيد قمة السلطة فى المجتمع، وتحويل علاقة التبعية مع استانبول بمرور الوقت إلى علاقة شكلية وخاصة منذ ستينيات القرن الثامن عشر. وترتب على ذلك ابتعاد المماليك عن ثقافة المركز العثمانى، وضعفت ظاهرة الازدواج اللغوى والثقافى لصالح توسيع المجال للانغماس فى الثقافة المحلى.

وكان تعلم اللغة العربية بمستوياتها العامية وشبه العامية (الوسيطة) ، وممارسة الكتابة بها ، أكبر نتائج التحول فى ثقافة وهوية المملوك ، وفى الوقت عينه كان ذلك نوعاً من استراتيچية دفاع البكوات المماليك عن مصالحهم ، وتأكيد شرعية وجودهم بالمجتمع باعتبارهم الممثلين له فى قمة السلطة. أيضًا تبين الدراسة أن المملوك شغلته قضية نبذ " الاغتراب " عن نفسه ، وهى الظاهرة التى لازمته منذ حادثة الخطف وانقلاب مصيره رأساً على عقب ، فأمكنه تحقيق درجة من اختزال المسافة مع المجتمع ، وذلك لقناعته بأهمية التقارب الثقافى، وأهمية تكيفه الاجتماعى، عبر إعادة تمثُّل قيم المجتمع الحاضن له واحترام آدابه وثوابته ؛ وكل ذلك كان بحثاً عن الشرعية التى تُكسبه قوة فى تأكيد أحقية وجوده فى قمة السلطة وفى مواجهة العثمانيين المنافسين له.

أخيراً وليس آخراً ، يتعين التأكيد على أن فكرة العُزلة والتقوقع والانكفاء على الذات المملوكية ، أو التصور السائد فى بعض الاتجاهات النظرية عن وجود حدود ثقافية أو لغوية صارمة ، فصلت بصورة حدية بين المماليك والمجتمع المصرى ، لم تعد سوى أفكار متخيلة لا تدعمها وقائع أو شواهد تاريخية ، وإننا نقترح فى ضوء نتائج هذه الدراسة رؤية تفسيرية جديدة تمثلها فكرة " المجتمع الحاضن " القادر على الاحتواء الثقافى للآخر عبر صيغة تعايشية مستمرة ومتراكمة ؛ إذ إنها أكثر ملائمة لتفسير طبيعة المملوك ، وفهم الظروف الموضوعية وراء التحولات الثقافية والاجتماعية التى مرت بها هويته ، والتى أدت فى النهاية إلى اندماجه فى المجتمع المصرى فى القرن الثامن عشر. ولم يكتب لهذه النتيجة بالطبع الاستمرارية بعد عام ١٨٠١ (٩١)؛ فقد أدت التطورات اللاحقة إلى تبديد القوى المملوكية، ثم تصفيتها فى مذبحة المماليك ، التى ترمز إلى نهاية ظاهرة "المصرلية"، وتآكلها كطبقة اجتماعية وكجماعة نُخبة ، وما تمخض عن ذلك كله من تهيُّئ الأجواء لعودة الثقافة العثمانية ، لتطل برأسها مع مجىء التحديث فى عصر محمد على باشا؛ حيث عادت السلطة من جديد إلى تمييز نفسها عن ثقافة المجتمع، ما جعل قرار المذبحة فى عام ١٨١١ يُمثل نهاية حقيقية لظاهرة الاندماج الثقافى للسلطة.

ملاحق الدراسة

صور من جوابات مراد بك والبكوات المماليك

ملحق رقم (١)

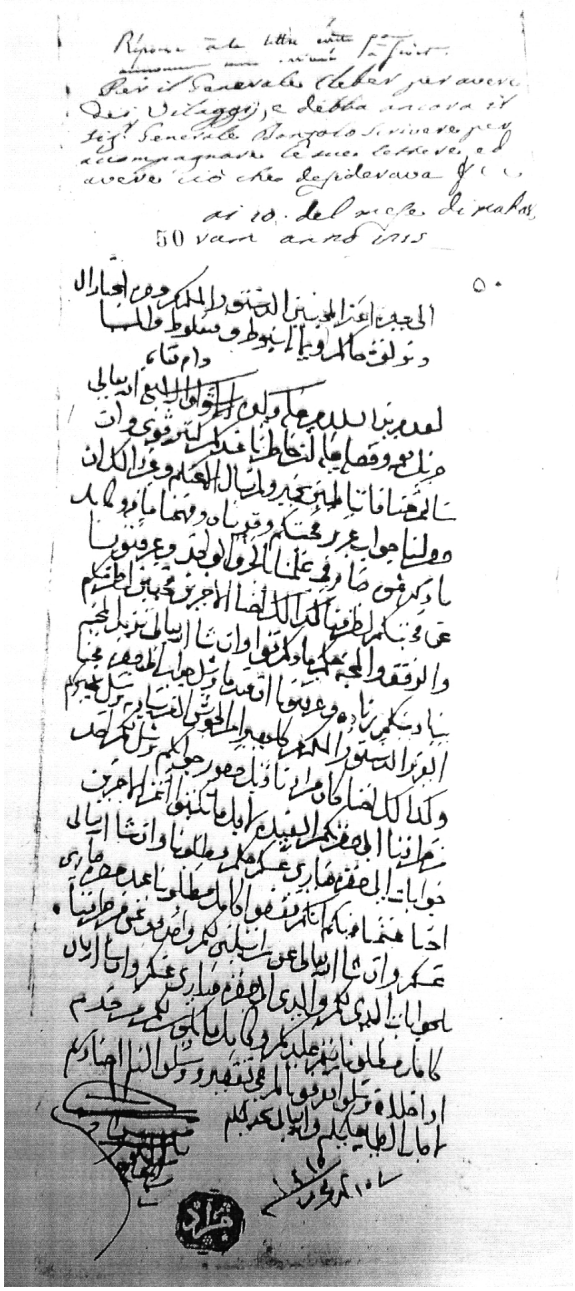

المصدر :

أرشيف الحملة الفرنسية بالمكتبة المركزية ـ جامعة القاهرة ، ظرف جوابات مراد بك ، «**جواب من الأمير مراد بك إلى الچنرال دونزيلوه**» ، الجواب رقم ٥٠ بتاريخ ١٠ محرم ١٠١٥/ ٣ يونيو ١٨٠٠ .

أهميتها التاريخية :

تُبين طريقة كتابة الجوابات بين الجانبين المملوكى والفرنسى منذ فترة حكم الچنرال القائد العام كليبير باللغة العربية اللامعيارية (العامية الوسيطة) والترجمة الإيطالية المعتاد كتابتها على نفس صفحة الجواب العربى المملوكى ، كما تُبين كيفية تنظيم حركة المراسلات بين الصعيد والقاهرة بعد التحالف المملوكى ـ الفرنسى .

ملحق رقم (٢)

المصدر : أرشيف الحملة الفرنسية بالمكتبة المركزية ـ جامعة القاهرة ، ظرف جوابات مراد بك ، **جواب من الأمير إبراهيم بك إلى أمير اللواء حسن بيك جداوى** ، الجواب رقم ٩٩ بتاريخ ٢٢ رجب ٢٠١٥/ ٩ ديسمبر ١٨٠٠

أهميتها التاريخية : أن الأمراء المماليك كانوا يُكاتبون بعضهم البعض باللغة العربية وبنفس مفردات العامية الوسيطة ، كما تظهر تبادلهم للمعلومات الاستخباراتية عن تحركات التحالف الأنجلو عثمانى .

ملحق رقم (٣)

المصدر : أرشيف الحملة الفرنسية بالمكتبة المركزية ـ جامعة القاهرة ، ظرف جوابات مراد بك ، «**جواب من الأمير مراد بك إلى الجنرال دونزيلوه**» ، الجواب رقم ٦١ بتاريخ ٢ رجب ٢٠١٥/ ١٩ نوفمبر ١٨٠٠ .

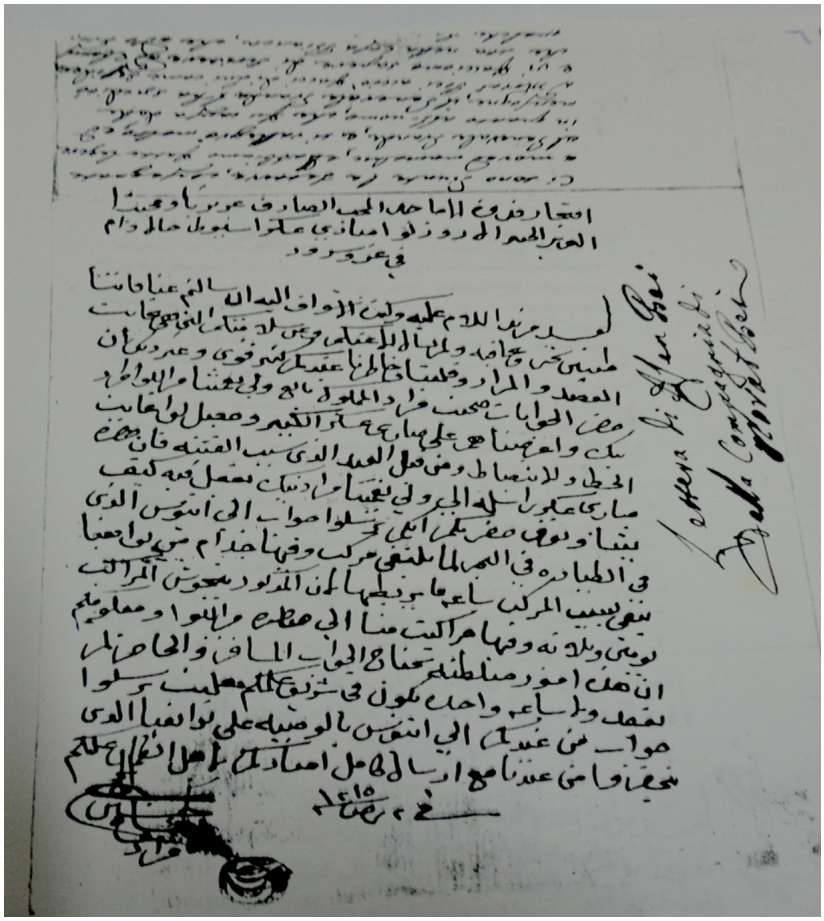

أهميتها التاريخية : تُبين أن حسين بك كتخدا مراد بك ، والذى اختاره الأخير ممثلاً عنه بالقاهرة لدى إدارة الاحتلال الفرنسى ، كان يتراسل مع الفرنسيين أيضًا باللغة العربية ، بالرغم من كونه عالمًا بأربع لغات كان من بينها الإيطالية التى كان يترجم إليها عادة معظم جوابات المماليك ، كما تُبين الوثيقة أحد أبعاد الدور المكلف أدائه الأمير حسين كتخدا .

ملحق رقم (٤)

المصدر : أرشيف الحملة الفرنسية بالمكتبة المركزية ـ جامعة القاهرة ، ظرف جوابات مراد بك ، «**جواب من الأمير حسن بك الجداوى بك إلى الأمير مراد بك**» ، الجواب رقم ١٠٠ بتاريخ ٢ شعبان ٢٠١٥/ ١٩ ديسمبر١٨٠٠ .

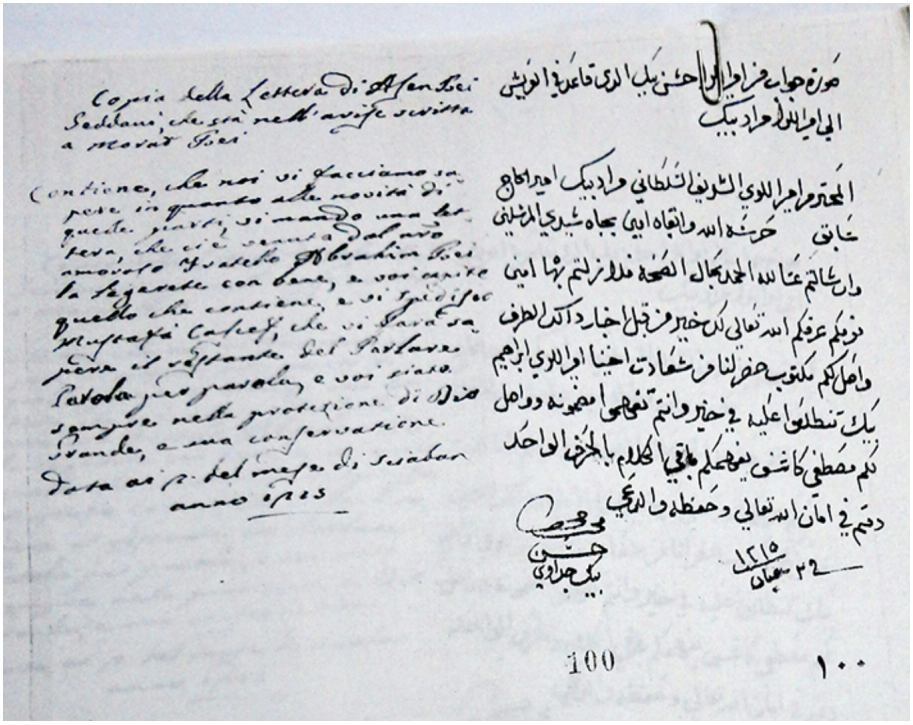

أهميتها التاريخية : تُبين أن الأمير حسن بك الجداوى ، وهو أحد أشهر بكوات المماليك فى أواخر القرن الـ ١٨م ، كان يكتب كذلك بالعامية المصرية (الوسيطة) ، مثله مثل إبراهيم بك ومراد بك ، والألفى وسليمان بك وغيرهم ممن تضمنتهم مجموعة الجوابات ؛ وأن شكل ومفردات الجواب العامى المملوكى كان قريبًا للغاية من نظيرتها جوابات العوام المصريين فى تلك الفترة عينها .

الهوامش

(١) نالت بعض جوابات المماليك حظًا من النشر ، سواء تلك التى تعود إلى سنوات سابقة على الحملة الفرنسية ؛ أى قبل عام ١٧٩٨ ، أو تلك التى ترتبط بفترة الحملة نفسها (١٧٩٨ – ١٨٠١) ، لكنها فى مجملها لم تخضع لأى دراسة ولم يجر لها تحقيق علمى منضبط ، كما لم تُنشر بصورة متكاملة ؛ فلا تزال هناك مجموعات أخرى متناثرة فى الأرشيفين المصرى (أرشيف المحاكم الشرعية)، وأرشيف فانسن بباريس Archives de Vincennes ، ونعمل حالياً على تجميعها تمهيداً لتحقيقها ونشرها كاملة. وفى هذا السياق تجدر الإشارة إلى أن الخورى بولس قرآلى، نشر جوابين للأمير مراد بك ، قبل زمن الحملة بعامين ، وبالتحديد عام ١٢١١هـ/ ١٧٩٦هـ فى كتابه : السوريون فى مصر ، ج ١ ، القسم الثانى الوثائق الخطية ١٧٥٠ – ١٨٠٥ ، مطبعة جريدة العلم ، لبنان ١٩٣٣، (ص ص ٣٨ –٣٩)؛ كذلك نشر نبيل الطوخى فى ملاحق دراسته أربعة جوابات من مجموعة مراد بك ، راجع صعيد مصر فى عهد الحملة الفرنسية ١٧٩٨ –١٨٠١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٧ ، (ص ص ٣٥٢ –٣٥٣ ؛ ٣٥٦ –٣٥٨)؛ وأخيرًا نشر عبد العزيز سليمان نوار جزءا مهمًا من مجموعة الجوابات، وذلك ضمن مشروع يستهدف نشر مجموعات متنوعة من وثائق تاريخ العرب الحديث، راجع ، مشروع وثائق تاريخ العرب الحديث " مراد بك والحكم الذاتى لجنوب صعيد مصر تحت المظلة الفرنسية" ، مركز الدراسات الإنسانية والمستقبليات ، جامعة عين شمس ٢٠٠١.

(٢) كان المسئول عن عملية شراء هذه الوثائق هو شارل رو Charles Roux ، أمين المكتبة الخاصة بجلالة الملك (فؤاد ثم فاروق). وتوجد مجموعتان أصليتان ، أحداها تلك التى أودعت بالمكتبة المركزية جامعة القاهرة ، فيما تم ضم الثانية لوثائق قصر عابدين ، والتى نُقلت مع غيرها إلى أرشيف دار الكتب والوثائق القومية. وقد نشرنا خطابين لكل من شارل رو وجاك تاجر بشأن إتمام صفقة شراء تلك المجموعة الضخمة من الوثائق فى : مختارات من وثائق الحملة الفرنسية، مراجعة وإشراف مديحة دوس ، ترجمة باتسى جمال الدين وأميرة مختار، دار الكتب والوثائق القومية ، ٢٠٠٦، ص ص ٢٣– ٢٥.

(٣) لعل ما يدفع على الاعتقاد بذلك هو أن الورثة اهتموا بترتيبها وتصنيفها فى كشاف موضوعى قبل بيعها ، وقاموا بطباعته فى عام ١٩٣٦ ؛ بقصد تبيان أهمية المجموعة الوثائقية ، وما تُغطيه من موضوعات. وقام على نشر هذا الكشاف الذى وجدناه ضمن هذه الملفات الوثائقية السيد أوكتاف أوبرى ، مما يعنى أنه كان جزءا من الصفقة باعتباره دليلاً إرشادياً للمجموعة ، واختار له عنوان : "نابوليون وعصره " راجع هذا الكشاف ضمن

المجموعة : Octave Aubry: Napoléon 1er et son temps, Paris, 1936.

(٤) يُضاف إلى ذلك ثلاث مسودات أخرى تم كتابتها فى الغالب من قبل الچنرال الفرنسى دونزيلوه، الذى مثل الجانب الفرنسى فى التراسل مع الأمير مراد ومجموعته المملوكية بالصعيد ، وتحمل هذه المراسلات الثلاث أرقام : (١١٦، ١١٧ ، ١١٨)، ، ولعل ذلك ما جعل صاحب الكشاف السيد أوكتاف أوبرى يعتبرها خارج مجموعة جوابات المماليك.

(٥) جواب من إبراهيم بك إلى حسن بك الجداوى ، مراسلة رقم ٩٩ (بتاريخ ٢٢ رجب ١٢١٥ / ٩ ديسمبر ١٨٠٠).

(٦) جواب من حسن بك الجداوى إلى مراد بك ، مراسلة رقم ١٠٠ (بتاريخ ٢ شعبان ١٢١٥ / ١٩ ديسمبر ١٨٠٠).

(٧) جواب من محمد بك الألفى إلى الچنرال دونزلوه ، مراسلة رقم ١٠٦ (بتاريخ ٧ رمضان ٢٠١٥ / ٢٢ يناير ١٨٠١).

(٨) جواب من حسين بك الزنطلى إلى الجنرال دونزلوه ، مراسلة رقم ٦١ (بتاريخ ٢ رجب ١٢١٥/ ١٩ نوفمبر ١٨٠٠)؛ ومراسلة رقم ١٠٨ ، (بتاريخ ١٥ شوال ٢٠١٥ / ١ مارس ١٨٠١).

(٩) نيقولا الترك : ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية ، حققه ووضع حواشيه ياسين سويد ، دار الفارابى ، بيروت ، الطبعة الاولى ١٩٩٠، ص ص ١٣٣ – ١٣٤.

(١٠) جواب من عثمان بك البرديسى إلى الجنرال دونزلوه ، مراسلة رقم ١٠٧ (بتاريخ ١٥ شوال ٢٠١٥ / ١ مارس ١٨٠١).

(١١) جواب سليمان بك محمد إلى الجنرال دونزلوه، مراسلة رقم ٨٦ (بتاريخ ١٢ جماد أول ١٢١٥ / ١ اكتوبر ١٨٠٠).

(12) Vincennes: B6 No. 7: Ibrahim Corbachi, commandant de Damanhour à Menou, 6 sept. 1798; B6 No. 8: Mamammet Tchorbagi IL Griaini à l'émir Ibrahim, Bekir Tchaouch et tous les autres tchaouchs, le 30 sept. 1798 ; B6 No. 11: L'Emir Moustapha, kaimakam de Berimbal à Moallem Stephanous, intendant copte de la province de Rosette, le Nov. 1798; B6 No 20: Mustapha, kahiya de l'Emir Hadji, le 31 mars 1799; B6 No. 26: Aly, kachef kaïmacan du village de Ballas à l'agha des janissaires Mustapha, le 7 juillet 1799.

وتُغطى هذه الجوابات الخمس فترة الچنرالين بونابرت وكليبير ، وهى باللغة العربية مصحوبة بالترجمة الإيطالية أو الفرنسية. وفضلاً عن هذه الجوابات ، هناك مراسلات وُجِهَت إلى الأمير مراد بك من قبل المسئولين الفرنسيين ،لكن من دون أن نجد برفقتها

نص الترجمة العربى ، على أنها مع ذلك مهمة لدراسة جوابات المماليك ، راجع على سبيل المثال:

Vincennes : B6 No141, Lettres de D'Aure , No. 243 , No. 581; B6 No141, No 581; No. 638 ; B6 No 142, No.825 ; No. 826; B6 No 144, No. 645.

(١٣) تُمثل مجموعة الأفكار والتفسيرات التى صاغتها دراسات ديفيد أيلون والتى اعتمد فيها على كتابات الجبرتى فى بناء تصوره عن المجتمع المملوكى، نموذجاً واضحًا لمعظم ما جاء فى الدراسات الكلاسيكية التى تبنت هذا التفسير، واعتمادا أيضاً على أدبيات الجبرتى التى تم التعامل معها للأسف على أنها مصدراً للحقبة العثمانية كلها (ق ١٦م – ق ١٨م)! ، راجع :

David Ayalon : Studies in al-Jabarti I. Notes on the Transformation of Mamluk Society in Egypt under the Ottomans, Journal of the Economic and Social History of the Orient,Vol. 3, No. 2 (Aug., 1960)pp148-174, (Oct., 1960),pp. 275-325.

(14) Piterberg Gabriel: "The Formation of an Ottoman Egyptian Elite in The eighteenth Century," IJMES 22 (1990), pp. 275 -289.

(١٥) الجوابات الأربعة لكل من : إبراهيم بك الكبير، سليمان بك الحنفى ، سليم أغا ، ومراد أغا ، وجميعهم من إقليم چورچيا.

(16) Daniel Crecelius and Gotcha Djaparidze: Relations of the Georgian Mamluks of Egypt with their Homeland in the decades of the eighteenth century, JESHO, vol. 45, t. 3, Brill NV,, Leiden, 2002 , [pp. 320 -341] , p.320 , 329.

(١٧) بيتر جران : الجذور الإسلامية للرأسمالية مصر ١٧٦٠ –١٨٤٠، ترجمة محروس– سليمان ، مراجعة رءوف عباس ، دار الفكر والدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٢، ص ص ٢٨ ، ٤٢ ، ٤٨ ؛ أندريه ريمون : المصريون والفرنسيون فى القاهرة ١٧٩٨ – ١٨٠١، ترجمة بشير السباعى ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ٢٠٠١، ص ص ٢٢ – ٢٥.

(١٨) جين هاثواى : سياسة الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية ، ترجمة عبد الرحمن عبد اللّه الشيخ، المشروع القومى للترجمة ، القاهرة ٢٠٠٣ ص ص ٦٧ ، ٢٩٧ – ٣٠٠ وما يليها ؛ وقد أعادت نشر ذات الأفكار فى مقالة مركزة نشرتها تحت عنوان :

Jane Hathaway: Mamluk Households and Mamluk Factions in Ottoman Egypt: a reconsideration, in: The Mamluks in Egyptian Politics and Society, edited by Thomas Philipp and Ulrich Haarmann , Cambridge university prss1998; [pp. 107 - 117] .

(١٩) لنيللى حنا دراسات عديدة حول المجال الثقافى فى العصر العثمانى ، وهنا نُشير بشكل محدد إلى دراستين أساسيتين ، الأولى أطروحتها المنشورة تحت عنوان : ثقافة الطبقة الوسطى فى مصر العثمانية (ق ١٦م – ق ١٨) ، ترجمة :رءوف عباس ، طبعة خاصة تصدرها الدار المصرية اللبنانية ضمن مشروع مكتبة الأسرة ، القاهرة ٢٠٠٤، ص ص ٢٠٤، ٢١٥ – ٢١٧ ؛ كذلك دراستها المتميزة على المكتبات الخاصة المملوكية بوثائق التركات المسجلة بالمحكمة الشرعية :

Nelly Hanna: Culture Life in Mamluk Households (Late Ottoman Period), In: The Mamluks in Egyptian Politics and Society - edited by Thomas Philipp and Ulrich Haarmann 1998, [pp.196-204].

(٢٠) نيللى حنا : المرجع السابق، ص ص ٢٠٤، ٢١٥ – ٢١٦.

(٢١) نفسه ، ص ٢٥٧.

(22) Nelly Hanna: op.cit, pp. 196 - 204.

(٢٣) توجد نماذج عديدة بالجبرتى ، راجع على سبيل المثال ترجمة الأمير المملوكى "على بن عبد اللَّه" (المتوفى فى عام ١٢٠٥ / ٩٠ – ١٧٩١) الذى ذكر بشانه :" أنه تربى فى الحريم وأقرأه القرآن وبعض متون الفقه وتعلم الفروسية" ، الجبرتى : عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ٣٢٨.

(24) Mémoires inédites de Roustam, mameluck de Napoléon 1er; Revue rétrospective, recueil de pièces intéressantes et de citation curieuses ; huitième semestre, (Janvier - juin 1888), Paris 1888.

(٢٥) قدم المملوك رستم إطلالة سريعة عن نشأته وتجربة اختطافه هو وأخوته، وقد نشر هذا الجزء من مرحلة الصبا فى الإصدار الثانى للمذكرات (طبعة ١٩١٠) ، مما لم تتضمنه طبعة عام ١٨٨٨، راجع :Hector Fleiscmann, Roustam Mameluck de Napoléon, d'après des mémoires et des documents inédits (Paris: Albert Méricant, 1910), pp. 26 - 43.

(٢٦) من خلال مقاربات نصية يُمكن كشف نظرات الجبرتى غير بريئة من المبالغة فى التحامل على تقييم شخصيات مملوكية دون أخرى بصورة لا تثبت أمام التحقيق ، قارن على سبيل المثال بين ما قدمه بشأن مراد بيك ، وما قدمه فى ترجمة تابعه الأمير محمد بيك الألفى. (راجع الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، ج ٣ ، ص ص ٢٣٧– ٢٤٢).

(٢٧) على سبيل المثال جماعة حجاج القرمان الليبيين الذين تصدى مراد بك لتامين رحلة عودتهم أو كذا قافلة دنقلة التى تعرض لها المغاربة والتى اعترها مراد بك " قلة أدب" لا

يمكن السكوت عليها ...إلخ. رجع: جوابات مراد بك إلى الجنرال دونزلوه ، مراسلات أرقام ٧٠ ، ٧٥ (لعام ١٨٠٠).

(٢٨) وقد أدهش هذا الأمر الجنرال " دونزلوه " حتى لقد ضمن هذه الحادثة فى خطاب منه إلى القائد العام كليبر أنظر:

Pieces diverses et correspondance relatives aux opèration militaires et politiques de l'armée d'orient en Egypte, Paris IX (1801), P. 302.

(٢٩) يعرف اللغويون " اللغة الوسيطة " بأنها اللغة اللامعيارية التى تمتزج فيها عناصر من الفصحى والعامية معاً ؛ راجع : مديحة دوس وهمفرى ديفيز : العامية المصرية المكتوبة ، مختارات من عام ١٤٠١ إلى ٢٠٠٩، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ٢٠١٣، ص ٢٤.

(٣٠) كتب مراد إلى الجنرال دونزلوه يقول له :" والجواب الذى حضر لنا من حضرة الوزير فانه بالتركى إن كان عندكم احدًا يقرأ بالتركى ترسلوا تعرفونا واحنا نرسله لكم واحنا لم نخبى عنكم كلام مطلقًا " ؛ راجع : جواب مراد بك إلى الجنرال دونزلوه ، مراسلة رقم ٥٤ (بتاريخ ١٤ محرم ١٢١٥/ ٧ يونيو ١٨٠٠) ؛ كذا راجع : جواب مراد بك إلى الجنرال دونزلوه ، مراسلة رقم ٥٨ ،(بتاريخ ٢٨ محرم ١٢١٥/ ٢١ يونيو ١٨٠٠).

(٣١) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٥٩٨.

(٣٢) أحمد شلبى ابن عبد الغنى : أوضح الإشارات فى من تولى حكم مصر القاهرة من الوزراء والباشات (الملقب بالتاريخ العينى)، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن، القاهرة، مكتبة الخانجى، ١٩٧٨، ص ٣٩٢.

(٣٣) نفسه، ج٣ ، ص ٢٧٢ – ٢٧٣ ، ٣٤٧ – ٣٤٨.

(٣٤) نفسه ، ج ٢ ، ص ص ١٨٦ –١٨٧.

(٣٥) نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٧٦.

(36) Ordre du jour par Bonaparte, le 30 juin, dans : Correspondance de Napoléon I er, publiée par ordre de l'empereur Napoléon III, Paris 1858 - 70, t.5, No. 40238.

(٣٧) كريستيان تشير فيتز : نابوليون والإسلام ، من الوثائق العربية والفرنسية ، تعريب زين نجاتى ، مكتبة الشروق العربية، ط١ القاهرة ٢٠٠٢، ص ٦٥ . ونص الوثيقة عبارة عن "مذكرة كتبها بونابرت عن الإدارة المحلية " فى فترة وجوده بمصر .

(٣٨) عادة ما كانت تصنف فى المكتبات الخاصة المسجلة فى التركات تحت عنوان : " شاه نامه، تيمور نامه ، همايون نامه ، أو تحت عنوان صريح " تاريخ تركى " ويبدو أن ذلك متعلق بتركات البكوات قبل فترة ستينيات القرن الـ ١٨م ؛ راجع على سبيل المثال تركة الأمير سليمان باش جاويش مستحفظان ؛ محكمة قسمة عسكرية : سجل رقم ١٤٧، وثيقة رقم ١٠٨ ، ص ٩٦ – ١١٠ (١١٥٢ / ١٧٤٠) ؛ كذلك أشارت نللى حنا إلى هذه المسألة اعتماداً

على تركات تعود فى أغلبها إلى النصف الأول من القرن الـ ١٨م بشكل أساسى ، راجع : Nelly Hanna: Culture Life in Mamluk Households,p.200 .

(٣٩) منها على سبيل المثال كتاب : الدرة المصانة فى أخبار الكنانة ، تأليف الأمير أحمد كتخدا الدمرداشى، فقد كتبه باللغة العامية الوسيطة التى لا تكاد تختلف مع بنية الفاظ ومفردات لغة البكوات فى أواخر القرن الثامن عشر ، وقد نشر هذا المخطوط وحققه عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، بالمعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ، مج ٢٨ ، القاهرة ١٩٨٩.

(٤٠) خالد عبد الله يوسف : أهل العلم والدب من سلاطين وأمراء دولة المماليك، (٦٤٨ – ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ – ١٥١٧م) ، مجلة آفاق الثقافة والتراث ، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث ، السنة ٢٤ ، العدد ٣ ، دبى ٢٠١٦ ، ص ص ٧٣ – ١٠١ .

(٤١) القِبجَاق من أشهر القبائل التركية التى كانت تقطن بصحارى وسهول أواسط آسيا لتركية القبجاقية هى لغة الجيش والبلاط المملوكى ، بينما ظلت العربية لغة العلم والمخاطبات الرسمية ، راجع خالد يوسف : المرجع السابق ، ص ص ٧٣ – ٧٤.

(٤٢) نفسه ، ص ص ٧٤ – ٧٥. ومما له دلالته أن أحد السلاطين الجاهلين بالعربية ، عجز عند موته أن يُعبر بالعربية عن رغبته حين اشرف على الموت فى منح ولاية العهد لابنه ، فقال بالتركية " أُغلم ، أُغلم " ، وتعنى "ابنى ، ابنى " ، ففهم الحضور أن هذا إشارة بالعهد لولده !. (المرجع نفسه).

(٤٣) نشر مؤرخرا يوسف راغب جواباً لشجر الدر وقام بتحقيق نص الجواب والكشف عن أهميته ، راجع :

Yusuf Ragib : Une lettre de Sagar al - Durr au future sultan Qutuz, Annales islamologiques, tome 48 . 2 , [IFAO] , le Caire 2014, [pp. 135 -165] .

(44) Michael Winter: "Ali Efendi?s Anatolian campaign book: a seventeenth century defense of the Egyptian army," Turcica, vol. 15 (1983) ; [pp. 267-309] , pp. 267 - 270 ; Gabriel Piterberg : op.cit, p. 277.

(٤٥) حسام عبد المعطى : " اندماج الرعية فى الأوجاقات العسكرية العثمانية بين الرفض والقبول" ، منشوراً فى الرفض والاحتجاج فى المجتمع المصرى فى العصر العثمانى " ، تحرير ناصر أحمد إبراهيم، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية – جامعة القاهرة ، القاهرة، ٢٠٠٤ ، ص ص ٦٩ –ـ ٨٧.

(٤٦) أندريه ريمون :الحرفيون والتجار فى القاهرة فى القرن الثامن عشر، ترجمة ناصر إبراهيم و باتسى جمال الدين ، المشروع القومى للترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة ، فى مجلدين ، رقما ٨١٨ و ٨١٩ ، القاهرة ٢٠٠٥، مج ٢ ، ص ٩٢٢ – ٩٢٨.

(٤٧) درست مديحة دوس هذا الإنتاج الشعبى من خلال تركيزها على مخطوط القينلى أحد أهم مؤرخى الأجناد العثمانلية بين عامى (١٦٨٨ - ١٧٣٥) ، وقدمت ملاحظات مهمة حول طريقة الكتابة بالعربية عند العسكر ، وشيوع ملامح الأدب الشفاهى الشعبى ، راجع : مديحة دوس : "وقائع القينلى من ١٦٨٨ - ١٧٣٥، ملاحظات حول طرق الكتابة والنقل، منشوراً فى : دراسات فى التاريخ والثقافة العربية ، الأعمال المهداة إلى الأستاذ الدكتور رءوف عباس حامد ، بمناسبة بلوغه سن الستين ، تحرير د. عبادة كُحيلة ، القاهرة ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ٢٠٠١، ص ص ١٨٩ -١٩٤.

(٤٨) يوسف الملوانى : تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب، تحقيق عماد أحمد هلال وعبد الرازق عيسى، العربى للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٢٥٦ ؛ أحمد شلبى عبد الغنى: المصدر السابق ، ص ١٥٩.

(٤٩) محمد بن حسن بن عبد الله باش خليفة مستحفظان (١١٨٧ هـ/ ١٧٧٣م): الطريقة والأدب فى نظام مصر والأوچاقات، مخطوط محفوظ بالمكتبة الوطنية بباريس، ومصنف تحت رقم Manuscrits Arabes , No. 4638.

(٥٠) ثمة نماذج عديدة رصدها ريمون فى وثائق المحاكم الشرعية ، ويعطى نموذجاً منها فى "القاب قولى إبراهيم " الذى صار فى عام ١٦٩٦ من تجار خان الخليلى، وأصبح يمتلك مسكناً وحانوتاً بالقاهرة ، بينما ظلت شقيقاته تقيم بموطنه الأصلى فى أحدى ولايات الدولة العثمانية ، ثم تزوج هو من ابنة أحد العقادين فى حى الغورية، وأشار ريمون إلى أن حالته خير دليل على تكيف العسكر (الروملى) مع الإقامة فى موطنهم الجديد . راجع أندريه ريمون : الحرفيون والتجار ، ج ٢، ص ٩٢٦.

(٥١) حسام عبد المعطى : المرجع السابق ، ص ص ٨١ - ٨٥. وهو يُشير إلى أن غالبية التجار المصريين الأثرياء كانوا إما إنكشارية أو عزبان أو تحت حمايتهما!.

(52) Mostafa Ali : Description of Cairo of 1599, translation and notes by Andreas Tietze, Vienna 1975, pp.63 - 64.

(٥٣) أحمد شلبى عبد الغنى : المصدر السابق ، ص ٦١٥.

(٥٤) الجبرتى : المصدر السابق ، ج١، ص ص ١٣٧ ، ١٣٨ ؛ ج ٢ ، ص٥٦.

(٥٥) نفسه ، ج ٢ ، ص ٨٣.

(٥٦) كارستين نيبور : رحلة إلى مصر، ترجمة مصطفى ماهر، القاهرة ١٩٧٧، ص ص ٢٤٩ - ٢٥٠.

(57) David Ayalon: op. cit, p.166.

(٥٨) ميكل ونتر : المجتمع المصرى تحت الحكم العثمانى ، ترجمة إبراهيم محمد إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١، ص ١٣٦.

(٥٩) الجبرتى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٣١. وقدمت صحف الحملة الفرنسية تقريراً يشهد بأن المماليك بالفعل كانوا يتلقون اهتماماً " بتربيتهم وتثقيفهم "، راجع صحف بونابرت فى مصر ١٧٩٨ - ١٨٠١، صحيفة الكورييه دى ليجيبت ، العدد رقم ٩ ، ترجمة صلاح الدين البستانى ، دار العرب للبستانى، القاهرة ١٩٧١ ، ص ٢٤.

(٦٠) أوليا جلبى : سياحتنامة مصر، ترجمة محمد على عونى ، تحقيق عبد الوهاب عزام ، وأحمد السعيد سليمان، وتقديم ومراجعة أحمد فؤاد متولى، القاهرة ٢٠٠٣ ، ص ص ٢٢٩ - ٢٣٠.

(٦١) نفسه، ص ٢٣٠.

(٦٢) إن الإدانة الأدبية والتى تقرب من الاحتجاج فى لغة الجبرتى وهو يُبدى أسفه على استيراد البكوات للسراجين (المماليك كبار السن) الذى يصفهم بـ "المشنبون" تأتى من أن هؤلاء لم يمروا بمرحلة الاحتضان المعتادة وإعادة تأهيلهم ثقافيا وأدبيًا: فقد وهذا الموقف من مراقب مخضرم مثل الجبرتى يُبين إلى أى حد كانت مسألة تهذيب المملوك بالغة الأهمية فى الحفاظ على المجتمع وعلى البيت المملوكى نفسه. راجع الجبرتى : المصدر السابق ، ج ٢، ص ٢٧٩.

(63) Daniel Crecelius and Gotcha Djaparidze: op. cit ,p. 334.

(٦٤) جوزيف مارى مواريه : مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية ، ترجمة كاميليا صبحى، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ٢٠٠٠، ص ١١٦.

(٦٥) نفسه ، ص ص ١١١ -١٢١ ، ١٩٤؛ وللأسف لم ينقل إلينا مواريه نص جوابها الأصلى المكتوب باللغة العربية ؛ فقط ترجم الجواب للفرنسية فى مذكراته تلك ؛ فحرمنا من التعرف على طبيعة الأسلوب الرومانسى عند المرأة المملوكية.

(٦٦) الجبرتى : المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٦١.

(٦٧) جواب من ابراهيم بك إلى حسن بك الجداوى ، مراسلة رقم ٩٩ (بتاريخ ٢٢ رجب ١٢١٥ / ٩ ديسمبر ١٨٠٠) ؛ جواب من حسن بك الجداوى إلى مراد بك ، مراسلة رقم ١٠٠ (بتاريخ ٢ شعبان ١٢١٥ / ١٩ ديسمبر ١٨٠٠).

(٦٨) ربما ساعد على ذلك فى أواخر القرن تحديداً سياسة حظر تجارة بيع الرقيق الأبيض ، حيث صدرت فرمانات نحو عام ١٢٠٠ / ١٧٨٦ بتشديد الرقابة بالموانىء ، انظر نص فرمان صادر باللغة العربية فى : مضبطة محكمة الإسكندرية الشرعية، سجل رقم ١٢، مادة بدون رقم ، ص ٩٠ (بتاريخ ٢٧ شوال ١٢٠٠).

(٦٩) الجبرتى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ص ١٥٩، ١٧٦، ٢٣٤، ٢٥٤، ٢٧٤ ؛ ج ٣ ، ص ٣٠٢، ٣٢٣.

(٧٠) مايكل ونتر : المرجع السابق، ص ص ١٣٩ - ١٤٠.

(٧١) جاء ذلك فى حوار صريح ومفتوح بين شيوخ الأزهر يتقدمهم الشيخ العروسى والأمير المملوكى إسماعيل بك (سنة ١٧٨٧) ، راجع الجبرتى : المصدر السابق، ج ٢ ، ص٢٣٤.

(72) Reynier, G.: State of Egypt after the battle of Heliopolis, Translated from the French, London, 1802, pp. 212 -213.

وبيَّن الجنرال رينيه فى مذكراته أن القائد العام مينو كان متخوفاً من انقلاب مراد بك عليه وعدم وفاءه إذا ما انقلب الحظ ضد الجيش الفرنسى واضطروا إلى خوض معركة المصير المؤجلة.

(٧٣) جواب من مراد بك إلى الجنرال دونزلوه ، مراسلة رقم ٥٩ (بتاريخ غرة صفر ٢٠١٥ / ٢٢ يونيو ١٨٠٠).

(٧٤) مجموعة مؤلفين : اللغة والهوية فى العالم العربى ، إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية، ج ١ ، المركز العربى للأبحاث ودراسة السياسات ، الطبعة ١، ٢٠١٣، ص ٢٠٢.

(٧٥) عقيل سعيد محفوظ : الأكراد واللغة والسياسة ، دراسة فى البنى اللغوية وسياسات الهوية ، المركز العربى للأبحاث ودراسة السّياسات ، الطبعة ١، ٢٠١٣، ص ٥٧.

(٧٦) راجع جوابات مراد بك إلى الجنرال دونزلوه ، مراسلة رقم (٧٢) بتاريخ ١٩ يونيو ١٨٠٠ ؛ مراسلة رقم (٩٢) بتاريخ ٢٩ أكتوبر ١٨٠٠.

(٧٧) جواب من مراد بك إلى الجنرال دونزلوه ، مراسلة رقم ٧٣ (بتاريخ ٢٩ صفر ٢٠١٥ / ٢٢ يوليو ١٨٠٠).

(78) Traité avec Mourad Bey; (5 Av. 1800), Kl´Eber en Egypte, 1798 - 1800, 4 Vols., présentation et notes par Henry Laurens, (IFAO), 1988, t. 4, pp. 803-804.

(٧٩) راجع جوابات مراد بك إلى الجنرال دونزلوه ، المراسلات أرقام ٦٦ ، ٧٢(١٨٠٠ / ١٨٠١).

(٨٠) كرر ذلك مرتين بصيغة عامة حول تسليطة المكرهين أو المنافقين ، راجع ، جواب مراد بك إلى الجنرال دونزلوه ، رقم ٦٤ (بتاريخ ١٢ صفر ١٢١٥ / ٥ يونيو ١٨٠٠)، مراسلة رقم ٨٩ (بتاريخ ٢٢ جماد أول ١٢١٥/ ١١أكتوبر ١٨٠٠).

(٨١) جواب من مراد بك إلى الجنرال دونزلوه ، مراسلة رقم ٥٨ (بتاريخ ٢٨ محرم ٢٠١٥ / ٢١ يونيو ١٨٠٠).

(٨٢) راجع جوابات مراد بك إلى الجنرال دونزلوه ، المراسلات أرقام ٦٦، ١١٨ (١٨٠٠ / ١٨٠١).

(٨٣) راجع جوابات مراد بك إلى الجنرال دونزلوه ، المراسلات أرقام ٩٠ ، ٩٢ ، ١٠٤ (١٨٠٠ / ١٨٠١).

(٨٤) جواب مراد بك إلى الجنرال دونزلوه ، المراسلة رقم ٧٥ (بتاريخ ١٠ ربيع أول ١٢١٥/ ١٩ يوليو ١٨٠٠).

(85) Vincennes : B6 No. 47 : le General Donzelot à General en chef Menou, le 25 Missidor IX (15 juillet 1800).

(86)7Marcel, Jean Joseph : Vocabulaire français-arabe des dialectes vulgaires africains d'Alger, de Tunis, de Marok et d'Egypte, Paris, Charles Hingray, 1837, p. xiii.

(87)Marcel, Jean Joseph : Grammaire arabe vulgaire du dialecte d'Egypte. au Kaire: Imprimerie nationale, an VIII, 1799.

(88) Marcel, Jean Joseph : Vocabulaire français-arabe des dialectes vulgaires africains d'Alger, de Tunis, de Marok et d'Egypte, p.xiii.

وقد أشار مارسيل إلى أن النسخة المنقحة بلغت ٤٠ ألف كلمة ومثل عامى ، وهو ما يُشكل تطويرا كبيرا للطبعة الاولى (١٧٩٩) التى كانت عبارة عن ٤٠٠٠ كلمة فقط ، أى تضاعف الحجم عشرة أضعاف !

(٨٩) أدوارد دريو : محمد على ونابوليون (١٨٠٧ – ١٨١٤) مراسلات قناصل فرنسا فى مصر، ترجمة ناصر أحمد إبراهيم ، المركز القومى للترجمة ،الإصدار رقم : ١٢٥٨، القاهرة ٢٠٠٨، ٤٥٣.

(90) Ronald Pawly: Napoleon's Mamelukes, Men - at - Arms, 429, Osprey publishing, 2006.

وهذه الدراسة المركزة (وقعت فى ٤٨ صفحة) بالغة الأهمية ؛ حيث بيَّن رولاند بأول بها كثيرًا من سير هؤلا المماليك على اختلاف اشياتهم والمواقع التى عملوا بها سواء خلال حروب نابوليون أو الجزائر ، وبيَّن أن بعض هؤلاء المماليك ظل بالجزائر لسنوات طويلة حتى مات بها. وهى بلا شك صفحة مهمة من تاريخ المماليك التى يتعين توسيع الاهتمام بدراستها.

(٩١) لعل مما له دلالة رمزية على بدء مرحلة جديدة من عودة الثقافة العثمانية ، أن أول قرار اتخذه الباشا العثمانى عقب رحيل الفرنسيين (نوفمبر ١٨٠١) إصدار أمر موجه إلى "الأمراء المصرلية بتغيير زيهم ، وأن يلبسوا زى العثمانية" المميز بالقواويق الخضر والأكمام الضيقة!. راجع الجبرتى : المصدر السابق، ج ٣ ، ص ٣٢٣.